Arabian Gulf Journal of Humanities and Social Studies

ISSN: 3080-4086

الإصدار السادس - العدد السابع عشر || تاريخ الإصدار 2026-08-20

آليات التماسك البلاغي في الخطاب القرآني وأثرها في بناء المعنى: دراسة تحليلية تطبيقية

Mechanisms of Rhetorical Cohesion in Quranic Discourse and Their Impact on Meaning Construction: An Applied Analytical Study

م.م. عبدالله إسماعيل أحمد حمادي

Assistant Lecturer Abdullah Ismail Ahmed Hammadi

تدريسي في قسم اللغة العربية

الجامعة العراقية- كلية التربية (الطارمية) - العراق - بغداد

DOI: https://doi.org/10.64355/agjhss61729

مجلة خليج العرب للدراسات الإنسانية والاجتماعية || هذه المقالة مفتوحة المصدر موزعة بموجب شروط وأحكام ترخيص مؤسسة المشاع الإبداعي(CC BY-NC-SA)

الملخص:
يهدف هذا البحث إلى الكشف عن آليات التماسك البلاغي في الخطاب القرآني وأثرها في بناء المعنى، من خلال دراسة تحليلية تطبيقية تتناول الكيفية التي تتفاعل بها الوسائل البلاغية والتركيبية والمعجمية والدلالية والبيانية في تحقيق وحدة الخطاب القرآني وتوجيه دلالاته، وانطلق البحث من إشكالية تتمثل في الكشف عن طبيعة التماسك البلاغي ومدى إسهامه في تجاوز الترابط الشكلي إلى بناء المعنى الكلي للنص، واعتمد المنهج الوصفي التحليلي القائم على استقراء النماذج القرآنية وتحليلها في ضوء مباحث البلاغة العربية وعلوم القرآن، وتناول البحث الأسس النظرية للتماسك البلاغي وعلاقته بالتماسك النصي، ومستوياته المختلفة، ودور السياق في تحقيق الترابط وبناء الدلالة، ثم درس أبرز آلياته، ومنها الحذف والذكر، والوصل والفصل، والتقديم والتأخير، والقصر، والتكرار، والإحالة، والتناسب، والتشبيه، والاستعارة، والكناية، مع الوقوف على وظائفها في ترابط الخطاب وتوجيه المعنى، كما تناول الجانب التطبيقي أثر التماسك التركيبي والمعجمي والدلالي والبياني في بناء المعنى من خلال نماذج قرآنية مختارة، وصولًا إلى بيان تكامل هذه الآليات في تشكيل الوحدة الدلالية للخطاب، وخلص البحث إلى أن التماسك البلاغي في القرآن الكريم منظومة متكاملة تتفاعل عناصرها داخل السياق، وأن الظواهر البلاغية لا تؤدي وظيفة جمالية فحسب، بل تشارك بصورة مباشرة في إنتاج المعنى وتعميقه وتوجيهه، بما يكشف عن دقة النظم القرآني ووحدة بنائه وثراء دلالاته.

الكلمات المفتاحية: التماسك البلاغي، الخطاب القرآني، التماسك النصي، بناء المعنى، البلاغة القرآنية، التحليل الدلالي.

Abstract:

This study aims to investigate the mechanisms of rhetorical cohesion in the Qur’anic discourse and their impact on meaning construction through an analytical and applied approach that examines how rhetorical, syntactic, lexical, semantic, and figurative devices interact to achieve textual unity and direct meaning. The study addresses the problem of identifying the nature of rhetorical cohesion and determining its role in moving beyond formal textual connectedness toward the construction of the overall meaning of the Qur’anic text. It adopts a descriptive-analytical method based on examining selected Qur’anic examples in light of Arabic rhetoric and Qur’anic sciences. The study first examines the theoretical foundations of rhetorical cohesion, its relationship with textual cohesion, its various levels, and the role of context in achieving cohesion and constructing meaning. It then analyzes major rhetorical mechanisms, including ellipsis and explicitness, conjunction and disjunction, foregrounding and postponement, restriction, repetition, reference, contextual correspondence, simile, metaphor, and metonymy, with particular attention to their functions in connecting discourse and directing meaning. The applied section examines the contribution of syntactic, lexical, semantic, and figurative cohesion to meaning construction through selected Qur’anic examples, culminating in an analysis of the integration of these mechanisms in establishing semantic unity. The study concludes that rhetorical cohesion in the Qur’an constitutes an integrated system whose elements interact within context, and that rhetorical devices do not merely serve aesthetic purposes but actively contribute to producing, deepening, and directing meaning, revealing the precision of Qur’anic composition, structural unity, and semantic richness.

Keywords: Rhetorical Cohesion, Qur’anic Discourse, Textual Cohesion, Meaning Construction, Qur’anic Rhetoric, Semantic Analysis.

المقدمة

يُعَدّ التماسك البلاغي من المرتكزات الأساسية التي تسهم في إحكام بناء الخطاب القرآني وترابط أجزائه، إذ لا تتشكل دلالة النص القرآني من المفردات والتراكيب منفردة، وإنما تتضافر مجموعة من الوسائل البلاغية والأساليب التعبيرية في تنظيم العلاقات بين الألفاظ والجمل والآيات، بما يجعل النص وحدة متكاملة في بنائها ودلالتها، وقد تجلّت هذه الآليات في الخطاب القرآني من خلال تنوع أساليب الوصل والفصل، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والإيجاز والإطناب، والتكرار، والتقابل، والاستفهام، والنفي، والشرط، وغيرها من الظواهر التي لا تؤدي

وظيفة جمالية فحسب، بل تضطلع بدور دلالي في توجيه المتلقي إلى المعنى المقصود، ويكشف النظر في هذه الآليات عن دقة النظم القرآني وقدرته على إقامة علاقات متينة بين مكونات الخطاب، بحيث تبدو كل وحدة لغوية مرتبطة بما قبلها وما بعدها ارتباطًا يؤدي إلى استكمال الدلالة وتحديد وجهتها، ومن هنا فإن دراسة التماسك البلاغي في القرآن الكريم تقتضي تجاوز النظرة التي تحصر البلاغة في المحسنات اللفظية والمعنوية، إلى النظر إليها بوصفها منظومة متكاملة تشارك في تشكيل بنية الخطاب وإنتاج معانيه، إذ إن اختيار الأسلوب وترتيب عناصر الجملة وتوزيعها داخل السياق القرآني يأتي وفق مقتضيات دقيقة تتصل بالمقام والغرض والدلالة.

وتتضح أهمية التماسك البلاغي بصورة أعمق عند دراسة أثره في بناء المعنى؛ فالعلاقات البلاغية بين أجزاء الخطاب لا تعمل بمعزل عن السياق، وإنما تتفاعل معه لتكوين دلالة كلية تتجاوز المعنى المعجمي المباشر للألفاظ والتراكيب، فقد يؤدي التقديم إلى تخصيص المعنى أو توكيده، ويكشف الحذف عن دلالات يقتضيها السياق، بينما يسهم التكرار في ترسيخ فكرة أو توجيه الانتباه إلى عنصر دلالي بعينه، ويؤدي الوصل والفصل دورًا في تحديد طبيعة العلاقة بين الجمل، كما يسهم التقابل في إبراز المعاني من خلال التضاد والموازنة، ويعمل الإيجاز والإطناب وفق مقتضى المقام على ضبط مقدار التعبير بما يخدم الغرض المقصود، وبذلك يصبح التماسك البلاغي عنصرًا فاعلًا في بناء المعنى القرآني، لأنه يربط بين الشكل التعبيري والوظيفة الدلالية، ويكشف عن أن اختلاف الصياغة في المواضع القرآنية ليس اختلافًا شكليًا، بل يرتبط بمقاصد دقيقة يفرضها السياق العام والخاص للخطاب، وانطلاقًا من ذلك تسعى هذه الدراسة إلى تحليل آليات التماسك البلاغي في نماذج مختارة من الخطاب القرآني، والكشف عن الكيفية التي أسهمت بها تلك الآليات في تحقيق الترابط النصي وتوجيه الدلالة، بما يبرز جانبًا من الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ويؤكد أن تماسك الخطاب القرآني يقوم على منظومة متكاملة من العلاقات اللغوية والبلاغية التي تتفاعل فيما بينها لبناء المعنى وإيصاله إلى المتلقي في صورة دقيقة ومؤثرة.

مشكلة البحث:

تنبع مشكلة البحث من أن التماسك في الخطاب القرآني لا يتحقق بمجرد الترابط النحوي أو اتصال الجمل والآيات من الناحية الظاهرية، وإنما يقوم على آليات بلاغية دقيقة تؤدي وظائف متعددة في تنظيم الخطاب وتوجيه دلالته، الأمر الذي يجعل الكشف عن هذه الآليات وتحليل أثرها في بناء المعنى قضية تحتاج إلى دراسة تطبيقية تكشف طبيعة العلاقات التي تنشأ بين مكونات النص القرآني، وكيفية إسهامها في توجيه المعنى وإبرازه، وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت بلاغة القرآن الكريم وأساليبه البيانية، فإن الوقوف على التماسك البلاغي بوصفه منظومة مترابطة تجمع بين الوسيلة البلاغية ووظيفتها الدلالية يظل مجالًا جديرًا بالبحث والتحليل؛ لذلك تتمثل مشكلة البحث في السؤال الرئيس الآتي: **ما آليات التماسك البلاغي في الخطاب القرآني، وكيف أسهمت هذه الآليات في بناء المعنى وتوجيه دلالته في السياقات القرآنية المدروسة؟**

أهمية البحث:

1. الكشف عن أبرز آليات التماسك البلاغي التي يقوم عليها الخطاب القرآني، وبيان تنوعها ووظائفها في إحكام بنائه.
2. إبراز الدور الذي تؤديه الآليات البلاغية في بناء المعنى القرآني وربط أجزاء الخطاب بعضها ببعض.
3. بيان العلاقة بين البنية البلاغية والسياق القرآني، وكيف يسهم السياق في توجيه الدلالة وتحديد المقاصد.
4. الإسهام في إبراز جانب من جوانب الإعجاز البياني للقرآن الكريم من خلال الكشف عن دقة النظم والتآلف بين عناصر الخطاب.
5. تقديم قراءة تحليلية تطبيقية تساعد على فهم النص القرآني والكشف عن أبعاده الدلالية والبلاغية.

أهداف البحث:

1. تحديد أبرز آليات التماسك البلاغي الواردة في الخطاب القرآني وتحليل صورها.
2. الكشف عن الوظائف البلاغية والدلالية التي تؤديها آليات التماسك في النص القرآني.
3. تحليل أثر التماسك البلاغي في بناء المعنى وتوجيه الدلالة وفق السياق القرآني.
4. بيان دور العلاقات بين الجمل والتراكيب في تحقيق وحدة الخطاب القرآني وانسجامه.

5. إبراز القيمة البيانية والجمالية للتماسك البلاغي في الكشف عن دقة النظم القرآني.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، من خلال رصد آليات التماسك البلاغي في نماذج مختارة من الخطاب القرآني، ووصفها وتحليل وظائفها البلاغية والدلالية، كما اعتمد الجانب التطبيقي للكشف عن أثر هذه الآليات في ترابط عناصر الخطاب وبناء المعنى وتوجيه دلالته وفق السياق القرآني.

المبحث الأول: الأسس النظرية للتماسك البلاغي في الخطاب القرآني:

يمثل التماسك أحد المرتكزات الأساسية التي تقوم عليها وحدة الخطاب وانسجامه، إذ يربط بين مكوناته المختلفة ويجعلها تتآزر في إنتاج دلالة كلية متكاملة، ولا سيما في الخطاب القرآني الذي تتسم بنيته بدقة النظم وترابط الألفاظ والتراكيب والمعاني، ويأخذ التماسك في النص القرآني أبعادًا متعددة تتداخل فيها الجوانب اللغوية والبلاغية والسياقية، بما يجعل الكشف عن آلياته وسيلة مهمة لفهم كيفية انتظام الخطاب وتوجيه معانيه، وانطلاقًا من ذلك يتناول هذا المبحث الأسس النظرية للتماسك البلاغي في الخطاب القرآني، وقد قُسّم إلى ثلاثة مطالب؛ يتناول المطلب الأول مفهوم التماسك البلاغي وعلاقته بالتماسك النصي، ويبحث المطلب الثاني مستويات التماسك البلاغي في الخطاب القرآني، بينما يتناول المطلب الثالث السياق ودوره في تحقيق التماسك وبناء المعنى.

المطلب الأول: مفهوم التماسك البلاغي وعلاقته بالتماسك النصي:

يُعدّ التماسك من المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها بناء الخطاب، إذ يعبّر عن انتظام أجزائه وتآلف مكوناته على نحو يجعلها تؤدي وظيفة دلالية متكاملة، فلا تكون الجمل والتراكيب مجرد وحدات متجاورة، وإنما ترتبط فيما بينها بعلاقات لغوية وبلاغية ودلالية تكشف عن وحدة النص وترابطه، وإذا كان مصطلح التماسك قد شاع في الدراسات اللسانية الحديثة ضمن البحث في النص وخصائصه، فإن أصوله الفكرية واللغوية تمتد إلى التراث العربي القديم، ولا سيما في مباحث النظم والتأليف والتناسب والفصل والوصل والحذف والذكر والتقديم والتأخير، وقد أدرك البلاغيون أن الكلام لا تتحقق بلاغته من خلال الألفاظ المفردة، وإنما من خلال العلاقات التي تنشأ بينها في أثناء التركيب، ولذلك ارتبط مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني بفكرة تعليق الكلم بعضها ببعض وبناء بعضها على بعض، بحيث تكون كل كلمة مرتبطة بما يسبقها ويلحقها ضمن نظام يؤدي إلى إنتاج المعنى المقصود، فاللفظ في ذاته لا يمثل القيمة البلاغية الكاملة، وإنما تتحدد قيمته من خلال موقعه وعلاقته بما يجاوره، وهو ما يجعل النظم أساسًا في إحكام البناء وتماسكه (الجرجاني، 1995: 55/1)، ومن هذا التصور يتبين أن التماسك البلاغي هو انتظام العناصر اللغوية في الخطاب وفق علاقات مقصودة تؤدي إلى ترابط المعاني وتساندها، بحيث لا ينفصل الجانب التركيبي عن الجانب الدلالي، ولا ينفصل اختيار الصياغة عن الغرض الذي يؤديه السياق.

وتتأكد قيمة هذا التصور في الخطاب القرآني؛ لأن القرآن الكريم يمتلك بناءً خاصًا تتفاعل فيه مستويات التعبير المختلفة، وتتساند فيه الألفاظ والتراكيب والصور والأساليب في إنتاج المعنى، فالآية القرآنية لا تؤدي وظيفتها بمعزل عن سياقها، بل ترتبط بما قبلها وما بعدها بعلاقات متنوعة قد تكون نحوية أو دلالية أو بلاغية، وقد يكون الرابط ظاهرًا في أداة من أدوات العطف أو الضمير، وقد يكون خفيًا قائمًا على المناسبة والانتقال والتعليل والمقابلة والتفريع، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران: 103)، إذ تتتابع الأوامر والنواهي في سياق واحد، ويتولد بينها ترابط دلالي يجعل الاعتصام أساسًا للوحدة، والنهي عن التفرق نتيجة لازمة للمبدأ السابق، ثم يأتي التذكير بنعمة الله ليقوي المعنى ويربطه بالخبرة الجماعية للمخاطبين، فالتماسك هنا لا يقوم على مجرد مجاورة الجمل، بل على علاقة معنوية تنتظم فيها الأوامر والنواهي والتذكير في بناء واحد يخدم مقصد الوحدة ونبذ الفرقة، ويؤكد هذا التصور أن النظم لا يتحقق من خلال اجتماع الكلمات فحسب، وإنما من خلال العلاقات التي تنشأ بينها وفق مقتضى المعنى والسياق (الجرجاني، 1995: 56/1).

ويرتبط مفهوم التماسك البلاغي ارتباطًا وثيقًا بمفهوم التماسك النصي، غير أن العلاقة بينهما لا تعني التطابق الكامل؛ فالتماسك النصي ينظر إلى الوسائل التي تحقق ترابط النص واتصاله، بينما يهتم التماسك البلاغي بالوظيفة التي تؤديها هذه الوسائل في بناء المعنى وتحقيق المقصد والتأثير في المتلقي، فالحذف، على سبيل المثال، قد يؤدي وظيفة نصية تتمثل في استحضار عنصر مفهوم من السياق، لكنه في المستوى البلاغي قد يحقق الإيجاز أو يثير انتباه المتلقي أو يترك له مجالًا للمشاركة في استنباط المعنى، وكذلك التقديم والتأخير قد يسهمان في ترتيب عناصر الكلام، إلا أن قيمتهما البلاغية تظهر في تخصيص المتقدم بالعناية أو تقوية دلالته أو قصر الحكم عليه، ومن هنا فإن التماسك البلاغي لا ينظر إلى الرابط بوصفه وسيلة شكلية فحسب، وإنما يدرسه بوصفه عنصرًا مشاركًا في صناعة الدلالة، وقد بيّن أبو موسى أن التراكيب البلاغية لا تنفصل عن الوظيفة الدلالية التي يؤديها اختلاف الصياغة والتركيب، لأن البنية اللغوية تتشكل وفق مقتضيات المعنى والسياق (أبو موسى، 1980: 42/1)، وبذلك يصبح التماسك النصي إطارًا عامًا للعلاقات التي تربط مكونات النص، في حين يمثل التماسك البلاغي المستوى الذي تظهر فيه القيمة التعبيرية والدلالية والجمالية لهذه العلاقات.

ولا يقتصر التماسك في الخطاب القرآني على العلاقات النحوية الظاهرة، وإنما يتجاوزها إلى العلاقات الدلالية التي تجعل المعاني متساندة ومتنامية داخل السياق، ومن أبرز مظاهر ذلك التناسب بين الآيات والمقاطع، إذ قد تنتقل الآية من معنى إلى آخر، ولكن هذا الانتقال يكون قائمًا على مناسبة دقيقة تربط السابق باللاحق، سواء أكانت المناسبة تعليلًا أم نتيجة أم مقابلة أم تفصيلًا بعد إجمال أم انتقالًا مقصودًا في مسار الخطاب، وقد عُني علماء القرآن بهذا الجانب عناية كبيرة، فدرسوا مناسبات الآيات والسور للكشف عن وجوه الارتباط بينها، وعدّوا ذلك من الوسائل التي تعين على فهم نظم القرآن وإدراك أسرار تأليفه، ويظهر هذا بوضوح في منهج البقاعي الذي جعل التناسب بين الآيات والسور مدخلًا للكشف عن وحدة البناء القرآني، وربط بين الموضوعات المتجاورة على أساس من العلاقات الدلالية والبلاغية (البقاعي، 1969: 20/1)، ومن ثم فإن التماسك البلاغي لا يقتصر على العلاقات التي تظهر في الجملة الواحدة، بل يمتد إلى العلاقات التي تربط الوحدات النصية بعضها ببعض، وهو ما يمنح الخطاب القرآني قدرته على بناء المعنى بصورة متدرجة ومتكاملة.

ويؤدي السياق دورًا حاسمًا في تحديد طبيعة التماسك البلاغي؛ لأن الدلالة لا تستقر في اللفظ منفردًا، وإنما تتحدد من خلال علاقته بما يحيط به من ألفاظ وتراكيب ومقامات، فاللفظة قد تحمل دلالات متعددة في المعجم، ولكن السياق هو الذي يحدد الدلالة المرادة، والتركيب الواحد قد تتغير وظيفته باختلاف المقام والغرض، ولهذا فإن تحليل التماسك في الخطاب القرآني يقتضي النظر إلى السياق بوصفه عنصرًا من عناصر بناء المعنى، لا مجرد إطار خارجي للنص، وقد ظهر هذا الاتجاه في كتب التفسير التي ربطت بين الآية وسياقها، وبين تركيبها وما يسبقه وما يلحقه، فجاء تفسير الطبري قائمًا في مواضع كثيرة على مراعاة السياق في تحديد المعنى وترجيح الأوجه التفسيرية (الطبري، 2001: 85/1)، ويكشف ذلك عن أن التماسك البلاغي يتأسس على تفاعل مستويين متكاملين: مستوى العلاقات اللغوية التي تربط أجزاء الخطاب، ومستوى السياق الذي يمنح هذه العلاقات قيمتها الدلالية والبلاغية.

ومن مظاهر التماسك التي تتصل بالجانب البلاغي الفصل والوصل؛ إذ إن اتصال الجمل أو انفصالها ليس أمرًا شكليًا، وإنما يخضع لمقتضيات المعنى والمقام، فالوصل قد يدل على شدة الاتصال بين المعاني، بينما قد يكون الفصل أدل على استقلال معنى عن آخر أو على اختلاف جهة العلاقة بين الجمل، ولذلك أفرد البلاغيون لهذا الباب مكانة بارزة في علم المعاني، لأن حسن استعمال الوصل والفصل يؤدي إلى إحكام بناء الكلام، ويجعل العلاقة بين الجمل منسجمة مع طبيعة المعنى، ويُفهم من ذلك أن التماسك لا يعني بالضرورة الإكثار من أدوات الربط، فقد يكون عدم استعمال الرابط هو الأنسب لتحقيق العلاقة الدلالية المقصودة، وهو ما يكشف أن التماسك البلاغي أعمق من التماسك الشكلي، وقد جعل القزويني الفصل والوصل من أبواب علم المعاني المرتبطة بمواقع الجمل وعلاقاتها، مما يدل على أن تنظيم العلاقة بين الجمل جزء من صناعة المعنى وليس مجرد ترتيب لغوي (القزويني، د.ت.: 143/1).

ويتصل بذلك الحذف والذكر بوصفهما من الوسائل التي تكشف عن عمق التماسك بين أجزاء الخطاب؛ فالحذف لا يكون مفهومًا إلا إذا وجد في السياق ما يدل على المحذوف، ولذلك فهو يقوم في جوهره على علاقة إحالية ودلالية بين العنصر المحذوف والعناصر الحاضرة، وقد يكون الحذف أكثر بلاغة من الذكر حين يكون المحذوف معلومًا من السياق، فيترك للمتلقي مجالًا لإدراك المعنى واستكماله، في حين يأتي الذكر حين تقتضي الدلالة إزالة اللبس أو التوكيد أو زيادة البيان، وتظهر قيمة هذه الظاهرة في الدراسات البلاغية التي ربطت الحذف بمقتضيات السياق ومقاصد الكلام، وهو ما يؤكد أن وسائل التماسك لا تعمل منفردة، بل تتفاعل مع السياق في تشكيل المعنى، وقد تناول ابن هشام مسائل الحذف والتقدير في ضوء العلاقات النحوية التي تكشف عن اتصال أجزاء الكلام، مبينًا أن المحذوف قد يدل عليه دليل من السياق أو من تركيب الكلام (ابن هشام، 1985: 746/2)، وعليه فإن الحذف والذكر يمثلان صورتين متقابلتين من صور التماسك: فالحذف يعتمد على قدرة السياق على استحضار الغائب، والذكر يعتمد على حضور العنصر لتأكيد المعنى أو توضيحه.

ويظهر التماسك كذلك في الإحالة والتكرار والتناسب المعجمي، إذ تساعد هذه الآليات على المحافظة على استمرارية الموضوع داخل الخطاب، وربط العناصر اللاحقة بالعناصر السابقة، ومنع تفكك الدلالة، فالضمير يحيل إلى مرجع سابق أو لاحق، والتكرار يعيد عنصرًا لفظيًا أو معنويًا في موضع جديد ليؤدي وظيفة دلالية مختلفة أو مؤكدة، والتناسب بين الألفاظ يجعل الحقول المعجمية داخل النص متآزرة في خدمة موضوع واحد، وتبدو هذه الآليات واضحة في الخطاب القرآني الذي تتكرر فيه بعض الألفاظ والصيغ ضمن سياقات مختلفة، دون أن يكون التكرار مجرد إعادة لفظية، بل يتحول إلى وسيلة لتثبيت المعنى وتطويره وتوجيهه، وقد اهتم السيوطي بظاهرة التكرار في علوم القرآن، وكشف عن تعدد أغراضه البلاغية والدلالية بحسب السياق الذي يرد فيه (السيوطي، 1975: 183/3)، ويؤكد ذلك أن الوحدة النصية لا تتطلب ثبات الألفاظ والمعاني على صورة واحدة، وإنما قد تتحقق من خلال إعادة العنصر نفسه في سياقات جديدة تؤدي إلى تنمية الدلالة وتوسيعها.

ولا يكتمل مفهوم التماسك البلاغي دون النظر إلى الصور البيانية بوصفها وسائل تسهم في الربط بين المعنى المجرد والصورة المحسوسة، وبين ما يريد الخطاب تقريره وما يستطيع المتلقي إدراكه من خلال التشبيه والاستعارة والكناية، فالصورة البيانية في القرآن لا تأتي منفصلة عن السياق، وإنما تتصل بما قبلها وما بعدها لتؤدي وظيفة دلالية تتجاوز الزينة اللفظية، وقد تكون الصورة وسيلة لشرح معنى، أو تقوية حجة، أو تقريب مفهوم، أو بناء مقابلة بين حالين، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: 5)، إذ تتكامل الصورة التشبيهية مع السياق السابق في بيان المفارقة بين حمل الكتاب من الناحية المادية وعدم الانتفاع بما فيه من العلم والهداية، فتتحول الصورة إلى أداة لتكثيف الدلالة وربط الحكم المجرد بمشهد محسوس، وقد عالج الزمخشري الصور البيانية القرآنية بوصفها جزءًا من النظم الذي تتضافر

فيه عناصر التعبير لتحقيق الغرض المقصود (الزمخشري، 2002: 532/4)، ومن ثم فإن البيان القرآني يمثل مستوى من مستويات التماسك؛ لأنه يربط الصورة بالدلالة والسياق ويجعلها جزءًا من حركة المعنى داخل الخطاب.

وعلى هذا الأساس يتبين أن العلاقة بين التماسك البلاغي والتماسك النصي علاقة تكامل وتداخل، لا علاقة انفصال؛ فالتماسك النصي يكشف عن الروابط التي تحفظ وحدة النص، بينما يكشف التماسك البلاغي عن الوظائف التي تجعل هذه الروابط منتجة للمعنى ومحققة للمقصد، وقد جمع التراث البلاغي العربي بين هذين البعدين في مباحث النظم والفصل والوصل والحذف والذكر والتقديم والتأخير والتناسب، ثم جاءت الدراسات النصية الحديثة لتعيد صياغة هذه الظواهر ضمن مفهوم أوسع هو تماسك النص وترابطه، وتبدو أهمية هذا التصور في القرآن الكريم على وجه الخصوص؛ لأن الخطاب القرآني يقوم على شبكة دقيقة من العلاقات التي تتفاعل فيها البنية النحوية والمعجمية والدلالية والبيانية والسياقية، ومن ثم فإن التماسك البلاغي لا يمثل مجرد خاصية شكلية، بل هو آلية أساسية في بناء المعنى القرآني، إذ يجعل كل عنصر من عناصر الخطاب مشاركًا في إنتاج الدلالة، ويكشف من خلال العلاقات بين الأجزاء عن وحدة النص وتكامل مقاصده (دراز، 1970: 168/1)، وهذا ما يجعل آليات التماسك البلاغي مدخلًا مهمًا للكشف عن أسرار النظم القرآني وفهم كيفية انتقال المعنى من مستوى اللفظ والتركيب إلى مستوى الدلالة الكلية للخطاب، وهي الفكرة التي تتأكد في النظر إلى القرآن بوصفه بناءً متكاملًا تتآزر أجزاؤه في أداء مقاصده.

المطلب الثاني: مستويات التماسك البلاغي في الخطاب القرآني:

يتخذ التماسك البلاغي في الخطاب القرآني مستويات متعددة تتداخل فيما بينها لتكوين البنية الكلية للنص، فلا يمكن النظر إلى التماسك على أنه ظاهرة تقع في مستوى واحد من مستويات التعبير، لأن القرآن الكريم يجمع في نظمه بين العلاقات التركيبية، والروابط المعجمية والدلالية، والإحالات السياقية، والصور البيانية، والإيقاع الصوتي، والتناسب بين الآيات والمقاطع، ويؤدي كل مستوى من هذه المستويات وظيفة خاصة، غير أن قيمته لا تظهر كاملة إلا من خلال علاقته بالمستويات الأخرى، إذ قد يبدأ التماسك من تركيب نحوي ثم يمتد إلى معنى دلالي، أو ينشأ من تكرار لفظي ثم يتحول إلى وحدة موضوعية، أو يتشكل من صورة بيانية ثم يتصل بمقصد السورة، ومن هنا فإن مستويات التماسك البلاغي تكشف أن الخطاب القرآني يقوم على منظومة متشابكة من العلاقات التي تجعل اللفظ والتركيب والسياق والصورة والإيقاع عناصر متساندة في بناء المعنى، وقد بيّن أبو موسى أن خصائص التراكيب لا تُفهم بمعزل عن المعاني التي تؤديها، وأن اختلاف النظم والتأليف يرتبط بما يقتضيه المقام من دلالة، وهو ما يجعل المستوى التركيبي أحد المداخل الرئيسة للكشف عن التماسك البلاغي (أبو موسى، 1980: 51/1).

ويأتي المستوى التركيبي في مقدمة مستويات التماسك، لأنه يقوم على العلاقات النحوية والبلاغية التي تربط الكلمات والجمل بعضها ببعض، ومن أبرز مظاهره العطف والضمائر والموصولات وأسماء الإشارة، فضلًا عن الحذف والذكر والتقديم والتأخير والفصل والوصل، وتؤدي هذه الوسائل دورًا في تنظيم حركة الخطاب وربط وحداته، بحيث لا تأتي الجملة القرآنية منفصلة عن السياق الذي يحيط بها، ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: 2–5)، إذ تنتظم الآيات في بناء تركيبي متدرج يبدأ بالحمد والثناء، ثم ينتقل إلى بيان صفات الله تعالى، ثم ينتهي إلى توجيه الخطاب بالعبادة والاستعانة، ولا يقوم هذا الانتقال على مجرد التتابع، بل تتصل كل جملة بما قبلها من جهة المعنى والوظيفة؛ فذكر الربوبية والرحمة والملك يمهد منطقيًا وبلاغيًا للانتقال إلى مقام العبادة والاستعانة، وقد كشف ابن هشام في مباحثه النحوية عن أهمية العلاقات التركيبية في اتصال الكلام وتحديد وظائف عناصره، وهو ما يبرز قيمة المستوى التركيبي في تحقيق التماسك (ابن هشام، 1985: 35/1).

ويتصل بالمستوى التركيبي مستوى الإحالة، وهو من أكثر المستويات فاعلية في المحافظة على استمرارية الخطاب، إذ تحيل الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة إلى عناصر سابقة أو لاحقة، فيظل المتلقي مرتبطًا بما سبق ذكره أو بما سيأتي بيانه، ومن الشواهد البارزة قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الحشر: 22)، فقد تكررت الإحالة بالضمير هو لتثبيت المرجع وإبقاء الحديث متصلًا حول الذات الإلهية، ثم جاءت الصفات المتتابعة لتوسيع الدلالة وترسيخها، والإحالة هنا ليست مجرد ظاهرة نحوية، وإنما وسيلة لتثبيت محور الخطاب ومنع انقطاعه، إذ يتكرر المرجع مع تنوع الصفات، فتتسع الدلالة مع بقاء الموضوع المركزي ثابتًا، ويؤكد ابن جني أن الضمائر وأدوات الإشارة من الوسائل التي يرتبط بها الكلام وتتحدد بها العلاقات بين عناصره، وهو ما يفسر جانبًا من الوظيفة النصية للإحالة (ابن جني، 1990: 370/2).

أما المستوى المعجمي فيتجلى في العلاقات التي تنشأ بين الألفاظ من خلال التكرار والترادف والتضاد والاشتقاق والتناسب بين الحقول الدلالية، فتعمل هذه العلاقات على إبقاء الموضوع حاضرًا في النص، أو بناء شبكة من المعاني المرتبطة التي تقود المتلقي إلى مقصد معين، ومن الشواهد القرآنية قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (النور: 45)، إذ تنتظم ألفاظ الخلق والماء والمشي والأنواع المختلفة من المخلوقات في حقل دلالي واحد، ثم يعود الخطاب إلى فعل الخلق في ختام الآية، فينشأ نوع من التماسك المعجمي والدلالي الذي يحيط بالمشهد كله، وتكشف هذه البنية أن تكرار الجذر الدال على الخلق في بداية الآية ونهايتها ليس تكرارًا مجردًا، وإنما يؤدي وظيفة إحاطية تحفظ وحدة الموضوع وتعيد المتلقي إلى مركز الدلالة، وقد أكد الراغب الأصفهاني

أن فهم الألفاظ القرآنية يقتضي مراعاة الفروق الدقيقة بين دلالاتها ومواقع استعمالها، لأن اللفظ يكتسب خصوصيته من السياق الذي يرد فيه (الأصفهاني، د.ت.: 8/1).

ويتطور المستوى المعجمي إلى المستوى الدلالي الذي يتأسس على العلاقات المعنوية بين أجزاء الخطاب، كعلاقات السبب والنتيجة، والإجمال والتفصيل، والتعليل والتفريع، والمقابلة والتضاد، وهي علاقات تجعل النص متدرجًا في بناء دلالته، ومن أوضح الشواهد قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: 5–6)، إذ يتكرر التركيب في الآيتين مع بقاء اللفظ العام ثابتًا، لكن التكرار يؤدي إلى تثبيت المعنى وتأكيد الوعد، ويمنح السياق قوة دلالية تتناسب مع مقام التسلية والتثبيت، وقد أشار السيوطي إلى أن التكرار في القرآن يأتي لأغراض بلاغية متعددة، منها التوكيد والتقرير والتفخيم وتثبيت المعنى بحسب المقام (السيوطي، 1975: 183/3)، وهكذا يتحول التكرار من وسيلة لفظية إلى رابطة دلالية، لأن المعنى في الآية الثانية يتصل بالمعنى في الأولى ويقويه ويؤكده.

ويظهر المستوى السياقي في علاقة النص بالمقام الذي ورد فيه، وبالخطاب السابق واللاحق، وبحال المخاطبين والغرض الذي تتوجه إليه الرسالة، فالسياق القرآني لا يحدد معنى المفردات والتراكيب فحسب، وإنما يفسر انتقال الخطاب من صيغة إلى أخرى، ومن خبر إلى إنشاء، ومن تقرير إلى تعليل أو تهديد أو وعد، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: 1–4)، إذ ينتظم السياق في وحدة عقدية متدرجة؛ تبدأ بإثبات الوحدانية، ثم تقرير الصمدية، ثم نفي الولادة والولادة عنه، ثم نفي المماثلة، فتتساند الجمل في بناء مفهوم متكامل للتوحيد، وقد بيّن ابن عاشور أن نظم السورة قائم على ترتيب دقيق بين الإثبات والنفي، بما يجعل كل جملة متممة لما قبلها ومؤدية إلى تمام المقصود (ابن عاشور، د.ت.: 605/30)، وبذلك يظهر أن السياق لا يمثل إطارًا خارجيًا للنص، وإنما يشكل مستوى من مستويات التماسك، لأنه يمنح العلاقات بين الجمل معناها ويكشف عن الغاية من ترتيبها.

ومن مستويات التماسك المهمة المستوى البياني، الذي تتشكل فيه العلاقات من خلال التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز والتمثيل، حيث تتحول الصورة إلى عنصر رابط بين المعنى المجرد والمشهد المحسوس، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ (البقرة: 261)، إذ تقوم الصورة على تمثيل مضاعفة الأجر بصورة نمو الحبة وتكاثر السنابل، فتنتقل الدلالة من المجال المعنوي إلى المجال الحسي، ويتحقق بذلك ترابط بين فعل الإنفاق ونتيجته من خلال صورة النمو والتضاعف، وقد كشف الزمخشري عن القيمة البلاغية لهذا التمثيل في تقريب المعنى وتثبيته في ذهن المتلقي، بحيث يصبح المشهد التصويري حاملًا للرسالة الدلالية (الزمخشري، 2002: 309/1)، وتكمن وظيفة المستوى البياني هنا في أنه لا يضيف صورة جمالية إلى المعنى فحسب، بل يعيد تنظيم المعنى في صورة متماسكة تجعل عناصره مترابطة داخل مشهد واحد.

ويتصل بالمستوى البياني المستوى التصويري الحركي الذي يجعل المعاني في صورة مشاهد متتابعة، ولا سيما في القصص القرآني، حيث تتلاحق الأفعال والأقوال والحركات في نسق يحقق اتصال المشاهد بعضها ببعض، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ۝ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ (طه: 67–69)، إذ ينتقل المشهد من الشعور بالخوف إلى التطمين، ثم إلى الأمر بالفعل، فتتشكل وحدة تصويرية متماسكة تقوم على تعاقب الأحداث وتناميها، ويؤدي هذا التتابع دورًا في إبقاء المتلقي داخل المشهد، فلا ينفصل الانفعال عن الحدث، ولا الحدث عن النتيجة، ويكشف هذا النوع من البناء عن أن التماسك قد يتحقق عبر حركة الصورة وتتابعها، لا عبر الروابط النحوية وحدها، وهو ما ينسجم مع البناء البلاغي في السور القرآنية ورصدت تآزر الأساليب في بناء الوحدة التعبيرية (الحمداني، 2003: 73/1).

ويبرز كذلك المستوى الصوتي والإيقاعي بوصفه مستوى يسهم في دعم التماسك البلاغي، إذ يتفاعل جرس الألفاظ وتناسق الفواصل وتكرار الأصوات مع المعنى والسياق، فينشأ انسجام صوتي يساعد على تثبيت الدلالة وإحداث أثر نفسي لدى المتلقي، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى: 1–3)، حيث ينسجم انتظام الفواصل الصوتية مع طبيعة الخطاب الذي يجمع بين السكون والطمأنينة ونفي الوحشة، ولا يكون الإيقاع هنا منفصلًا عن المعنى، وإنما يعمل في خدمته من خلال التناسب بين الأصوات والفواصل وحركة السياق، وقد درس الزيدي الجرس والإيقاع في القصة القرآنية، مبينًا أثر البنية الصوتية في تقوية الحركة التعبيرية وربط المشاهد والمعاني داخل الخطاب القرآني (الزيدي، 1978: 27/9)، ومن ثم فإن المستوى الصوتي يمكن أن يؤدي وظيفة تماسك غير مباشرة، إذ يحافظ على وحدة النغمة ويجعل الانتقال بين أجزاء الخطاب أكثر انسجامًا.

ومن مستويات التماسك أيضًا المستوى الموضوعي الذي يرتبط بوحدة المحور العام للنص وتفرع المعاني الجزئية عنه، إذ قد تتعدد القضايا التي تتناولها السورة أو المقطع، ولكنها تنتظم في إطار مقصدي واحد، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 183)، فالتشريع في الآية لا يأتي مجرد حكم منفصل، وإنما يرتبط بمقصد التقوى، وهو ما يجعل الحكم وعلته في وحدة دلالية واحدة، ويظهر هذا الترابط بصورة أوضح عند النظر إلى ما يحيط بالآية من سياق تشريعي يربط الأحكام بمقاصدها، فيتجاوز الخطاب حدود الأمر والنهي إلى بناء تصور متكامل عن وظيفة التشريع، وقد اهتم القرطبي ببيان الروابط بين الأحكام ومقاصدها وسياقاتها، مما يكشف عن أهمية الوحدة الموضوعية في فهم البناء الدلالي للآيات (القرطبي، 1988: 275/2).

كما يظهر التماسك في المستوى التناسبي الذي يربط بين أجزاء السورة أو بين مقاطعها المختلفة، بحيث يكون الانتقال من موضوع إلى آخر قائمًا على علاقة معنوية يمكن الكشف عنها بالتأمل في السياق العام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: 1–3)، إذ تبدأ السورة بالقسم، ثم يأتي الحكم العام بالخسران، ثم يستثنى منه نموذج الإنسان الذي جمع الإيمان والعمل والتواصي بالحق والصبر، فتنتظم السورة في بناء بالغ التكثيف يجمع المقدمة بالقضية والنتيجة والاستثناء، ولا يمكن فهم كل عنصر فيها بمعزل عن الآخر، وقد جعل البقاعي معرفة المناسبة بين أجزاء القرآن وسيلة للكشف عن انتظام المعاني واتصالها، ورأى أن التناسب يعين على إدراك الحكمة في ترتيب الآيات والسور (البقاعي، 1969: 24/1).

ويتضح من هذه المستويات أن التماسك البلاغي في الخطاب القرآني يقوم على التكامل بين البنية والوظيفة؛ فالمستوى التركيبي يربط الجمل، والمستوى الإحالي يحافظ على استمرارية المرجع، والمستوى المعجمي يربط الألفاظ بالحقول الدلالية، والمستوى الدلالي ينظم العلاقات بين المعاني، والمستوى السياقي يحدد وجهة الخطاب، والمستوى البياني يحول المعنى إلى صورة مؤثرة، والمستوى الصوتي يدعم الانسجام والإيقاع، والمستوى الموضوعي والتناسبي يحافظان على الوحدة الكلية، وهذا التكامل هو الذي يمنح الخطاب القرآني قدرته على الانتقال بين المعاني دون أن يفقد وحدته أو يتشتت مساره، وقد أشار دراز إلى أن القرآن يتميز بوحدة متماسكة تتآزر فيها عناصره على نحو يجعل كل جزء مرتبطًا بالكل الذي ينتمي إليه، وأن النظر إلى الآية منعزلة عن سياقها قد يحجب جانبًا من جمال نظمها ودلالتها (دراز، 1970: 170/1)، وبذلك يتبين أن التماسك البلاغي ليس مستوى منفردًا، وإنما منظومة متعددة المستويات، تتفاعل فيها الخصائص اللغوية والبلاغية والدلالية والصوتية والسياقية في بناء واحد، وهو ما يمهد للبحث في دور السياق بوصفه عنصرًا جامعًا لهذه المستويات وموجهًا لوظائفها في بناء المعنى القرآني.

المطلب الثالث: السياق ودوره في تحقيق التماسك وبناء المعنى:

يمثل السياق أحد المرتكزات الأساسية في فهم الخطاب القرآني والكشف عن نظامه البلاغي؛ لأن المعنى لا يتحدد في كثير من الأحيان من خلال اللفظ منفردًا، وإنما يتشكل من خلال علاقته بما يحيط به من ألفاظ وتراكيب وأحداث ومقامات، فاللفظة القرآنية لا تؤدي دلالتها بصورة منعزلة عن السياق الذي وردت فيه، وإنما تكتسب خصوصيتها من موقعها في التركيب ومن صلتها بما قبلها وما بعدها، ولذلك فإن التماسك البلاغي تقتضي تجاوز النظر إلى الآيات بوصفها وحدات مستقلة إلى النظر إليها ضمن شبكة من العلاقات التي تربط بعضها ببعض، وقد أدرك علماء العربية والتفسير هذه الحقيقة منذ وقت مبكر، فربطوا فهم الكلام بمقامه وسياقه ولحاقه، وعدّوا مراعاة السياق من الوسائل التي تعين على تحديد المراد من الألفاظ والتراكيب، ويؤكد ابن عاشور أن النظر في نظم الكلام ومناسبته لما قبله وما بعده من أهم الوسائل التي تكشف عن المعاني التي قصدها الخطاب، لأن الآية لا تنفصل في دلالتها عن موقعها في السورة (ابن عاشور، د.ت.: 97/1)، ومن هنا يتبين أن السياق ليس عنصرًا خارجيًا يضاف إلى النص بعد اكتماله، وإنما هو جزء من البنية التي تسهم في إنتاج المعنى، وتكشف عن العلاقات التي تحقق التماسك بين مكونات الخطاب.

ويتسع مفهوم السياق ليشمل السياق اللغوي الذي يتمثل في الكلمات والتراكيب المتقدمة والمتأخرة، والسياق المقامي الذي يتعلق بالمتكلم والمخاطب والغرض والمقام، فضلًا عن السياق العام الذي يحيط بالموضوع القرآني ويكشف عن وجه الانتقال من معنى إلى آخر، ويظهر أثر السياق اللغوي بوضوح في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 2)، إذ لا يمكن فهم الإشارة في اسم الإشارة ذلك بمعزل عن المقام الذي افتتحت به السورة، ولا يمكن فهم الانتقال من نفي الريب إلى وصف القرآن بالهدى دون إدراك العلاقة الدلالية بين الجملتين، فالنفي في لا ريب فيه يمهد للإثبات في هدى للمتقين، وتترتب الجملة اللاحقة على السابقة بحيث يتشكل بينهما ترابط دلالي يجعل كل عنصر مكمّلًا للآخر، وقد عُني الزمخشري بالكشف عن العلاقات بين أجزاء التركيب القرآني، مبينًا أن اختلاف مواقع الألفاظ وصيغها يرتبط بالمعنى الذي يقتضيه السياق، وأن التركيب لا يؤدي وظيفته البلاغية إلا في ضوء علاقاته الداخلية (الزمخشري، 2002: 52/1)، وهكذا يتحول السياق اللغوي إلى آلية لتحقيق التماسك؛ لأنه يمنع انفصال الدلالة ويجعل المعنى متناميًا من جملة إلى أخرى.

ويظهر دور السياق في تحديد دلالة المفردة القرآنية بصورة أكثر وضوحًا؛ فالألفاظ قد تكون متعددة الدلالات، لكن السياق يوجهها إلى معنى محدد يتلاءم مع المقام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (الطارق: 1–3)، إذ جاءت كلمة الطارق في أصل استعمالها اللغوي ذات صلة بالطرق والمجيء ليلًا، ثم جاء السياق اللاحق ليحدد المراد منها بقوله النجم الثاقب، فانتقلت الدلالة من الإبهام النسبي إلى التعيين، ويتحقق بذلك ترابط بين الاسم والوصف، وبين السؤال والجواب، إذ يؤدي التركيب وما أدراك ما الطارق وظيفة تمهيدية تشد الانتباه، ثم يأتي البيان النجم الثاقب ليكشف المقصود ويستكمل المعنى، وقد اهتم الراغب الأصفهاني بالفروق الدلالية بين الألفاظ القرآنية وبيّن أهمية مراعاة مواقع استعمالها في فهم المراد منها (الأصفهاني، د.ت.: 520/1)، وهذا يوضح أن السياق لا يفسر المفردة فقط، بل يسهم في إحكام البناء الدلالي للنص كله.

ومن أبرز وظائف السياق في تحقيق التماسك أنه يكشف العلاقات بين الجمل والآيات، إذ قد تكون العلاقة بينها ظاهرة من خلال أدوات العطف، وقد تكون قائمة على معنى يستفاد من السياق دون وجود رابط لفظي مباشر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى: 1–3)، فالقسم بالضحى والليل الساجي يتصل دلاليًا بجملة ما ودعك ربك وما قلى؛ لأن المشهد الكوني الذي يفتتح به الخطاب يمهد للمعنى النفسي الذي يريد الخطاب تثبيته، وهو نفي الهجر والترك، ومن ثم فإن العلاقة بين القسم والجواب ليست علاقة شكلية، وإنما

علاقة دلالية تهيئ المتلقي للرسالة التي سيحملها الجواب، ويكشف القزويني عن أهمية العلاقات بين الجمل في بناء الكلام، مبينًا أن الفصل والوصل يتحددان وفق طبيعة الصلة بين المعاني ومقتضى المقام (القزويني، د.ت.: 143/1)، وبذلك يظهر السياق بوصفه الوسيط الذي يكشف عن طبيعة العلاقة بين الأجزاء، سواء أكانت علاقة تعليل أم نتيجة أم مقابلة أم تمهيدًا أم انتقالًا.

ويتجلى السياق كذلك في توجيه دلالة الحذف والذكر؛ فالحذف لا يؤدي وظيفته إلا إذا كان السياق قادرًا على الدلالة على المحذوف، والذكر قد يأتي عندما يقتضي المقام التوكيد أو إزالة اللبس أو زيادة البيان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (يوسف: 82)، إذ جاء الفعل واسأل القرية، والمقصود سؤال أهل القرية، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وأمكن إدراك المحذوف من السياق والعرف اللغوي، وهنا لا يؤدي الحذف إلى اضطراب المعنى، بل يحقق الإيجاز ويمنح التركيب قوة تعبيرية، لأن القرية أصبحت بمن فيها كأنها طرف في السؤال، وقد تناول ابن هشام ظاهرة الحذف في العربية وبيّن أن المحذوف قد تدل عليه القرائن اللفظية أو المعنوية، وأن تقديره لا يكون اعتباطيًا، وإنما يقوم على دليل من السياق (ابن هشام، 1985: 746/2)، ومن ثم فإن السياق يمثل عنصرًا رئيسًا في تحقيق التماسك، لأنه يربط العنصر المذكور بالعنصر المحذوف ويضمن استمرار المعنى رغم غياب بعض مكونات البنية الظاهرة.

كما يؤدي السياق دورًا بارزًا في توجيه التقديم والتأخير والقصر، إذ قد يتغير ترتيب العناصر في الجملة لتحقيق غرض بلاغي يفرضه المقام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: 5)، فقد تقدم المفعول به إياك على الفعل والفاعل، وهو تقديم يحقق الاختصاص والقصر، ويجعل العبادة والاستعانة متوجهتين إلى الله تعالى وحده، ولا يمكن إدراك القيمة البلاغية لهذا التقديم بمجرد النظر إلى ترتيب الكلمات، وإنما يتطلب ذلك استحضار سياق السورة الذي انتقل من الثناء على الله وذكر صفاته إلى إعلان العبودية والافتقار إليه، وقد جعل الجرجاني ترتيب الألفاظ بحسب ترتيب المعاني أساسًا من أسس النظم، مبينًا أن التقديم والتأخير لا يكونان مجرد تغيير في مواضع الكلمات، وإنما يرتبطان بالمعنى الذي يراد إبرازه وتخصيصه (الجرجاني، 1995: 107/1)، وهكذا يوجه السياق المتلقي إلى فهم سبب العدول عن الترتيب الأصلي، ويكشف عن الوظيفة البلاغية التي يؤديها هذا العدول.

ومن وظائف السياق أيضًا تحقيق التناسب بين الآيات والمقاطع القرآنية، إذ إن الانتقال من موضوع إلى آخر لا يكون في الخطاب القرآني انتقالًا عشوائيًا، بل يقوم في كثير من المواضع على علاقات دقيقة بين المعاني، ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة: 183–184)، إذ ينتقل السياق من أصل تشريع الصيام إلى بيان مدته وما يتعلق به من أحكام، فيتدرج المعنى من الحكم العام إلى التفصيل، ويظل المقصد حاضرًا في جميع أجزاء السياق، وقد جعل البقاعي التناسب بين الآيات من أهم الوسائل التي تكشف عن انتظام القرآن، ورأى أن كل مقطع ينبغي أن يُنظر إليه في علاقته بما يسبقه ويلحقه، لأن المناسبة تكشف عن الحكمة في ترتيب الكلام (البقاعي، 1969: 25/1)، ومن هنا فإن السياق يحقق التماسك على مستوى يتجاوز الجملة والآية إلى المقطع والسورة، فيجعل الانتقال بين الموضوعات جزءًا من البناء العام.

ويتصل بذلك السياق القصصي الذي يظهر فيه التماسك من خلال ترتيب الأحداث وتعاقبها، إذ لا ترد الأحداث في القصص القرآني لمجرد سرد الوقائع، وإنما تنتظم وفق غرض دلالي وبلاغي يتناسب مع المقام الذي ترد فيه القصة، ومن ذلك قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ۝ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (طه: 11–13)، إذ يتدرج المشهد من الوصول إلى المكان إلى النداء، ثم التعريف بالرب، ثم الأمر، ثم بيان الاصطفاء والوحي، فتتتابع الأحداث في بناء متصل يطور الحالة النفسية والمعرفية للشخصية، وقد بيّن الحمداني في دراسته للسور القرآنية أن التتابع البلاغي بين المشاهد والأحداث يؤدي وظيفة أساسية في إحكام البناء وإبقاء أجزاء القصة متصلة في ذهن المتلقي (الحمداني، 2003: 109/1)، ومن ثم فإن السياق القصصي يحقق التماسك من خلال الحركة والتتابع، ويجعل كل حدث نتيجة أو تمهيدًا لما يأتي بعده.

ويبرز أثر السياق في التكرار القرآني؛ فالتكرار في القرآن لا يعني إعادة المعنى بالصورة نفسها في جميع المواضع، وإنما تتغير دلالته بحسب السياق الذي يرد فيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ المتكرر في سورة الرحمن، إذ تأتي الآية بعد عرض مظاهر مختلفة من النعم والقدرة والخلق والجزاء، فيكون التكرار رابطًا بين المقاطع المتعددة، ويعيد المتلقي إلى السؤال المركزي الذي تنتظم حوله السورة، فالتكرار هنا يحقق وحدة إيقاعية ودلالية، ويجعل المقاطع المختلفة حلقات في بناء واحد، وقد أشار السيوطي إلى أن التكرار القرآني يتنوع بحسب الأغراض والمقامات، وأنه قد يأتي للتقرير والتوكيد وتعدد المتعلقات وتثبيت المعنى في النفس (السيوطي، 1975: 183/3)، وهذا يؤكد أن السياق هو الذي يمنح التكرار وظيفته، وأن اللفظ المكرر لا يؤدي بالضرورة الدلالة نفسها في كل موضع، وإنما تتحدد وظيفته بما يحيط به من معانٍ وأحداث.

كما يؤدي السياق دورًا أساسيًا في تحديد دلالة الصور البيانية، لأن التشبيه والاستعارة والكناية لا تستقل عن المقام الذي وردت فيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم: 4)، إذ أسند الاشتعال إلى الرأس، وهو تعبير استعاري يصور انتشار الشيب في الرأس بصورة انتشار النار، فيجعل الضعف والكبر مشهدًا محسوسًا قوي التأثير، ولا تتحدد قوة هذه الصورة إلا من خلال السياق الذي يسبقها، إذ جاءت في مقام دعاء زكريا عليه السلام وبيان ضعفه وكبر سنه، فأسهمت الصورة في بناء حالة وجدانية تمهد لطلب الولد، وقد كشف الزمخشري عن أهمية الصورة في تكثيف المعنى وإبرازه في صورة حسية، مبينًا أن العدول عن التعبير المباشر إلى الصورة يحقق قوة في الأداء ودقة في الدلالة (الزمخشري، 2002:

8/3)، وهنا يتضح أن السياق يمنح الصورة وظيفتها التماسكية؛ فهي لا تأتي بوصفها عنصرًا جماليًا منفصلًا، وإنما ترتبط بالمقام وتخدم تطور المعنى.

ويتجلى السياق في التقابل والموازنة بين المعاني، إذ قد يبني القرآن معنى من خلال وضع صورتين أو موقفين متقابلين في سياق واحد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل: 5–10)، إذ ينتظم المقطع في بناء ثنائي قائم على المقابلة بين العطاء والبخل، والتقوى والاستغناء، والتصديق والتكذيب، واليسرى والعسرى، وقد أشار القزويني إلى قيمة المقابلة في إحكام الصلة بين المعاني المتضادة، لأن الجمع بين المتقابلات في سياق واحد يبرز الفروق بينها ويقوي أثرها في النفس (القزويني، د.ت.: 198/1)، ومن هنا فإن السياق المقابلي يحقق التماسك من خلال تنظيم المعاني في أزواج مترابطة، بحيث يفسر كل طرف الطرف الآخر ويقابله في البناء والدلالة.

ولا يقتصر أثر السياق على توضيح المعنى المباشر، بل يتجاوز ذلك إلى توجيه المقصد البلاغي للخطاب؛ فقد يكون الكلام في ظاهره خبرًا، بينما يؤدي في السياق وظيفة أخرى كالتهديد أو التوبيخ أو التعجب أو التسلية أو التقرير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان: 49)، فالتركيب في ظاهره يتضمن وصفًا بالعزة والكرم، غير أن السياق الذي ورد فيه يجعل الوصف ذا دلالة تهكمية تناسب مقام التوبيخ والعذاب، ولا يمكن إدراك هذه الدلالة من الألفاظ منفردة، وإنما تتولد من السياق الذي يحدد المقام ويوجه النبرة البلاغية، وقد تناول أبو السعود أساليب القرآن في ضوء مقاماتها، وكشف عن أثر السياق في انتقال العبارة من معناها الظاهر إلى معنى يقتضيه المقام (أبو السعود، 1999: 60/8)، وهذا يبرهن على أن السياق عنصر أساس في فهم الدلالة البلاغية، وأن التماسك لا يتحقق بالترابط اللفظي وحده، بل يتطلب إدراك الغرض الذي تنتظم من أجله الألفاظ والتراكيب.

ويكشف السياق كذلك عن العلاقة بين التماسك المعجمي والتماسك الدلالي؛ فالألفاظ التي تتكرر أو تتجاور في النص القرآني لا تعمل بمعزل عن الموضوع العام، وإنما تشكل حقولًا دلالية متآزرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ (الفجر: 1–5)، إذ تتآلف ألفاظ الفجر والليالي والشفع والوتر والليل في سياق القسم، ثم يأتي الاستفهام في نهاية المقطع رابطًا هذه العناصر بالغرض الذي يتوجه إليه الخطاب، وقد أشار الفيروزآبادي إلى أن فهم دلالة المفردة يرتبط بما يحيط بها من استعمالات وسياقات، لأن المعنى المعجمي لا ينفصل عن موضع اللفظ في الكلام (الفيروزآبادي، 1983: 9/1)، ومن ثم فإن السياق يربط الألفاظ في شبكة دلالية تجعلها تؤدي وظيفة واحدة داخل البناء العام.

ومن خلال ذلك يتبين أن السياق يمثل آلية جامعة لمستويات التماسك البلاغي؛ فهو الذي يحدد وظيفة الرابط التركيبي، ويوجه دلالة اللفظ، ويكشف مرجع الإحالة، ويفسر الحذف، ويحدد قيمة التقديم والتأخير، ويبين وظيفة التكرار، ويربط الصورة البيانية بمقصدها، ويكشف عن المناسبة بين الآيات والمقاطع، ولهذا فإن التماسك البلاغي في الخطاب القرآني لا يمكن دراسته دراسة مكتملة من خلال حصر الروابط الشكلية، وإنما يتطلب قراءة كلية تستحضر حركة المعنى داخل السياق، وقد أكد دراز أن النظم القرآني يقوم على تناسق دقيق بين أجزائه، وأن المعنى الكلي لا يظهر إلا من خلال النظر في ترابط الآيات وتآلفها ضمن الوحدة التي تنتمي إليها (دراز، 1970: 170/1)، وبذلك يصبح السياق عنصرًا فاعلًا في بناء الوحدة الدلالية للخطاب، لأنه يحول العلاقات المتفرقة بين الألفاظ والتراكيب إلى شبكة متكاملة من المعاني.

وعليه، فإن أثر السياق في تحقيق التماسك وبناء المعنى القرآني يتجلى في كونه حلقة الوصل بين البنية اللغوية والدلالة البلاغية؛ فالنص القرآني لا يكتسب وحدته من وجود الروابط اللفظية وحدها، وإنما من انتظام هذه الروابط داخل سياق يحدد وظائفها ومراميها، وكلما اتسعت دائرة النظر من الكلمة إلى الجملة، ومن الجملة إلى الآية، ومن الآية إلى المقطع، ومن المقطع إلى السورة، ظهر مقدار الترابط الذي يجمع أجزاء الخطاب في بناء واحد، ومن هنا فإن السياق لا يكتفي بتفسير ما يقوله النص، بل يكشف عن كيفية قوله ولماذا قيل بهذه الصورة، وهي النقطة التي تلتقي عندها البلاغة مع التماسك النصي؛ لأن قيمة التماسك تظهر حين تتحول العلاقات اللغوية إلى علاقات دلالية مؤثرة في توجيه المعنى، ولذلك يمثل السياق أساسًا منهجيًا لفهم آليات التماسك البلاغي، ومدخلًا ضروريًا للكشف عن أثرها في بناء المعنى القرآني الكلي.

المبحث الثاني: آليات التماسك البلاغي في الخطاب القرآني:

تتجلى قوة الخطاب القرآني في دقة بنائه وتآلف عناصره، إذ تتضافر الأساليب البلاغية المختلفة في تحقيق ترابط الألفاظ والتراكيب والمعاني، بما يجعل كل عنصر من عناصر النص مؤديًا وظيفة تتجاوز الجانب الجمالي إلى الإسهام في بناء الدلالة وتوجيهها، وتتنوع آليات التماسك البلاغي في القرآن الكريم بين الحذف والذكر، والوصل والفصل، والتقديم والتأخير، والقصر، والتكرار، والإحالة، والتناسب، فضلًا عن الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية، وهي آليات تتفاعل داخل السياق لتكوين وحدة خطابية ودلالية متماسكة، ومن هذا المنطلق، يتناول هذا المبحث أبرز آليات التماسك البلاغي وأثرها في ترابط الخطاب وبناء المعنى، وقد قُسّم إلى أربعة مطالب؛ يتناول المطلب الأول الحذف والذكر والوصل والفصل وأثرها في ترابط الخطاب، ويبحث المطلب الثاني التقديم والتأخير والقصر وأثرها في توجيه الدلالة، ويتناول المطلب الثالث التكرار والإحالة والتناسب وأثرها في تحقيق الوحدة الدلالية، بينما يخصص المطلب الرابع للتشبيه والاستعارة والكناية ودورها في تحقيق التماسك وبناء المعنى.

المطلب الأول: الحذف والذكر والوصل والفصل وأثرها في ترابط الخطاب:

تُعدّ ظواهر الحذف والذكر والوصل والفصل من أبرز الآليات البلاغية التي أسهمت في إحكام ترابط الخطاب القرآني وتوجيه دلالته، لأنها لا تتصل بالشكل التركيبي وحده، وإنما تتجاوز ذلك إلى بناء العلاقات بين أجزاء الكلام وتحديد درجة الاتصال أو الانفصال بينها، فالحذف يقوم على إسقاط عنصر من عناصر التركيب مع قيام قرينة تدل عليه، في حين يرتبط الذكر بإبراز العنصر والتصريح به عندما يقتضي المقام ذلك، أما الوصل والفصل فيتصلان بكيفية تنظيم العلاقة بين الجمل، بحيث يُعطف بعضها على بعض حين تكون الصلة بينها قوية ومقتضية للجمع، أو تُفصل حين تكون لكل جملة خصوصيتها الدلالية أو حين يكون الفصل أبلغ في أداء المعنى، وقد جعل عبد القاهر الجرجاني هذه الظواهر جزءًا من نظام النظم، لأن قيمة الكلام لا تتحدد بالألفاظ منفردة، وإنما بطريقة تأليفها وربط بعضها ببعض وفق مقتضيات المعنى (الجرجاني، 1995: 107/1)، ومن ثم فإن الحذف والذكر والوصل والفصل تمثل وسائل فاعلة في تحقيق التماسك؛ إذ تسهم في تنظيم حركة المعنى، وتحدد للمتلقي كيفية الانتقال من فكرة إلى أخرى.

ويظهر الحذف في الخطاب القرآني بوصفه وسيلة للإيجاز والتكثيف، إذ يُحذف اللفظ مع بقاء ما يدل عليه في السياق، فيكون المتلقي شريكًا في استكمال المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ (يوسف: 82)، فالمقصود سؤال أهل القرية، وقد حذف المضاف اعتمادًا على وضوح المراد من السياق، ولا يؤدي الحذف هنا إلى غموض يقطع ترابط الخطاب، بل يحقق اختصارًا يجعل العبارة أكثر قوة، لأن السياق يحتفظ بالصلة بين الفعل اسأل والمقصود منه، وقد تناول ابن هشام الحذف بوصفه أسلوبًا تقوم دلالته على وجود دليل يدل على المحذوف، فلا يكون الحذف جائزًا إلا إذا أمكن للمتلقي استحضار العنصر المحذوف من خلال القرائن (ابن هشام، 1985: 746/2)، ومن هنا يتحول الحذف إلى آلية تماسك؛ لأنه يعتمد على علاقة ذهنية بين المذكور والمحذوف، ويجعل السياق قادرًا على سد الفراغ التركيبي دون أن ينقطع المعنى.

ويقابل الحذفَ الذكر، الذي يأتي حين يكون التصريح بالعنصر أكثر ملاءمة للمقام، سواء للتوكيد أو البيان أو إزالة اللبس أو تقوية الدلالة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات: 40–41)، إذ جاء ذكر الجنة صريحًا في جواب الشرط، فانتقل السياق من بيان صفة المؤمن إلى التصريح بالنتيجة التي تترتب عليها، مما جعل المعنى أكثر وضوحًا واكتمالًا، فالذكر هنا يؤدي وظيفة دلالية تتجاوز مجرد استكمال التركيب، لأنه يبرز النتيجة ويجعلها مركزًا في بناء الخطاب، وقد أكد أبو موسى أن اختلاف التراكيب بين الحذف والذكر يرتبط بالمقاصد التي يفرضها السياق، وأن اختيار أحدهما دون الآخر يحمل قيمة معنوية وبلاغية (أبو موسى، 1980: 42/1)، وبذلك يتحقق التماسك من خلال ملاءمة البنية لمقتضى المقام.

أما الوصل فيتحقق من خلال ربط الجمل والعناصر بأدوات العطف وغيرها من الروابط، ويؤدي وظيفة واضحة في بيان قوة الصلة بين المعاني، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ (الشمس: 1–4)، إذ تتتابع المقاطع في نسق موصول تتعاضد فيه صور الشمس والقمر والنهار والليل، فتتكون وحدة تصويرية متكاملة، وتكرار الواو يؤدي وظيفة ربطية وإيقاعية في الوقت نفسه، إذ يجعل العناصر المتعددة أجزاءً من مشهد واحد، ولا يقتصر أثر الوصل على الجمع بين الألفاظ، بل يوجه المتلقي إلى إدراك العلاقة التي تجمع بينها ضمن السياق، وقد أفرد القزويني بابًا للفصل والوصل، وربط بينهما وبين طبيعة العلاقة المعنوية بين الجمل، مؤكدًا أن الوصل يكون حيث تقتضي الحال اتصال المعاني (القزويني، د.ت.: 143/1).

وفي مقابل الوصل يأتي الفصل، وهو ترك العطف بين الجمل عندما تكون العلاقة بينها قائمة على استقلال نسبي أو حين يكون الفصل أدخل في إبراز المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: 13–14)، إذ جاءت الجملتان في سياق المقابلة بين فريقين، واتصل معناهما من جهة التقابل والدلالة، مع استقلال كل جملة في تقرير حكمها، وتظهر قيمة الفصل في إبراز كل صورة بصورة واضحة قبل الانتقال إلى الصورة المقابلة، فيتولد من ذلك توازن دلالي يقوي أثر المعنى، وقد بيّن القزويني أن الفصل قد يكون أبلغ من الوصل حين تكون بين الجملتين علاقة تجعل الثانية مستقلة في دلالتها، أو حين يراد تقوية كل معنى على حدة (القزويني، د.ت.: 144/1).

وتتكامل هذه الآليات في الخطاب القرآني لتكوين تماسك تركيبي وبلاغي لا يقوم على كثرة الروابط الظاهرة، وإنما على ملاءمة كل وسيلة لطبيعة المعنى والسياق، فالحذف يربط الغائب بالحاضر من خلال القرينة، والذكر يرسخ العنصر الذي يحتاج إليه المقام، والوصل يجمع المعاني المتآلفة، والفصل يبرز استقلال المعاني أو يقوي المقابلة بينها، ومن ثم فإن هذه الظواهر تكشف دقة النظم القرآني؛ إذ لا يأتي اختيار الحذف أو الذكر أو الوصل أو الفصل اعتباطًا، وإنما يؤدي وظيفة محددة في حركة الخطاب وبناء دلالته (دراز، 1970: 168/1)، وهذا ما يجعلها آليات أساسية في تحقيق ترابط النص القرآني؛ لأنها تربط بين المستوى التركيبي والمستوى الدلالي، وتمنح الخطاب قدرة على الانتقال بين المعاني مع المحافظة على وحدته وانسجامه، وهو ما يؤكد أن التماسك البلاغي في القرآن يتأسس على التفاعل الدقيق بين البنية اللغوية ومقتضيات السياق والمقصد.

المطلب الثاني: التقديم والتأخير والقصر وأثرها في توجيه الدلالة:

يُعدّ التقديم والتأخير والقصر من الآليات البلاغية التي تكشف دقة النظم القرآني وقدرته على توجيه الدلالة وفق مقتضى السياق والمقام، إذ لا تأتي مواقع الألفاظ في الخطاب القرآني بصورة عفوية، وإنما تنتظم وفق علاقات دقيقة بين المعنى والتركيب والغرض البلاغي، فالتقديم يتيح إبراز

عنصر معين وجعله في موضع الصدارة، والتأخير قد يؤدي إلى التشويق أو مراعاة الترتيب المعنوي، في حين يعمل القصر على تخصيص الحكم بجهة معينة ونفيه عما سواها، ومن ثم فإن هذه الأساليب لا تمثل مجرد تغييرات في ترتيب عناصر الجملة، بل تسهم في بناء مركز الدلالة وتحديد ما ينبغي أن يحظى باهتمام المتلقي، وقد جعل الجرجاني ترتيب الكلام بحسب ترتيب المعاني أساسًا في نظرية النظم، مؤكدًا أن التفاوت في الفصاحة لا يرجع إلى الألفاظ منفردة، وإنما إلى طريقة وضعها في مواضعها وما ينشأ عن ذلك من علاقات دلالية (الجرجاني، 1995: 50/1).

ويظهر التقديم بوضوح في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: 5)، فقد تقدم المفعول به إياك على الفعل والفاعل، والأصل في التركيب أن يقال: نعبدك ونستعينك، غير أن العدول عن الترتيب المألوف يؤدي وظيفة بلاغية تتمثل في تخصيص العبادة والاستعانة بالله تعالى، فالتقديم جعل المفعول به في مركز الجملة، وربط العبادة والاستعانة مباشرة بالمخاطب، الأمر الذي يوجه المعنى نحو الاختصاص والقصر، كما أن تكرار إياك قبل الفعل الثاني يعزز استقلال الدلالتين مع اتحادهما في جهة التوجه، ويمنح التركيب قوة إيقاعية ومعنوية، وقد بيّن القزويني أن التقديم والتأخير قد يُقصد بهما الاختصاص وتقوية الحكم بحسب مقتضى المقام، وأن موضع اللفظ في الجملة قد يحمل معنى لا يؤديه الترتيب الأصلي (القزويني، د.ت.: 133/1)، وبذلك يصبح التقديم وسيلة لتوجيه المعنى، لا مجرد ظاهرة تركيبية.

ويتخذ التقديم وظيفة أخرى تتمثل في العناية والاهتمام، إذ يُقدَّم ما يراد إبراز منزلته في السياق أو ما يتوجه إليه قصد المتكلم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (الأعلى: 17)، فقد تقدم ذكر الآخرة في سياق المقارنة بينها وبين متاع الدنيا، فكان ترتيب الكلام متناسبًا مع الغرض الذي يوجه المتلقي إلى تفضيل الباقي على الفاني، ولا تنحصر قيمة التقديم في الجانب النحوي، وإنما تتصل بالبناء الدلالي العام؛ إذ يضع العنصر المقصود في بؤرة الخطاب ويجعله أكثر حضورًا في ذهن المتلقي، وقد أكد أبو موسى أن التراكيب العربية تتفاوت في قيمتها بحسب ترتيب عناصرها، وأن تقديم عنصر على آخر قد يرتبط بالعناية به أو بتوجيه المعنى إليه (أبو موسى، 1980: 121/1)، ويكشف ذلك عن ارتباط التقديم بالمقام الذي يحدد ما ينبغي إبرازه في الكلام.

ويظهر التأخير في مواضع متعددة من الخطاب القرآني، وقد يأتي لتحقيق التشويق أو مراعاة الترتيب في بناء المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ (فصلت: 50)، إذ ينتظم التركيب وفق ترتيب يهيئ المتلقي للوصول إلى النتيجة، وتأتي العبارة الختامية هذا لي لتكشف عن موقف الإنسان بعد زوال الضر، فتظهر دلالته بعد تمهيد سياقي متدرج، والتأخير في هذا النوع من التراكيب يتيح بناء المعنى بصورة متصاعدة، بحيث لا يصل المتلقي إلى العنصر النهائي إلا بعد المرور بالمقدمات التي تفسر دلالته، وقد تناول ابن هشام مواقع العناصر في الجملة العربية وما يترتب عليها من اختلاف في الدلالة، مبينًا أن الترتيب قد يتغير بحسب المقاصد والقرائن (ابن هشام، 1985: 541/2).

ومن وظائف التقديم والتأخير التشويق إلى المتأخر، إذ يُذكر ما يثير انتباه المتلقي قبل الكشف عن العنصر الذي يكتمل به المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (القمر: 41–42)، إذ يتدرج الخطاب من مجيء النذر إلى التكذيب ثم الأخذ، فتأتي النتيجة في نهاية السياق بعد اكتمال عناصر المشهد، وهذا الترتيب يمنح الخطاب حركة دلالية متنامية، ويجعل النتيجة متصلة بالأسباب التي سبقتها، ويؤكد الجرجاني أن النظم يقوم على أن توضع المعاني في ترتيبها المناسب، بحيث يكون بعضها سببًا في ظهور بعض، وهو ما يجعل الترتيب عنصرًا من عناصر بناء الدلالة (الجرجاني، 1995: 82/1).

أما القصر فهو من أهم أساليب توجيه الدلالة، لأنه يقوم على تخصيص أمر بآخر، بحيث يُحصر الحكم في جهة معينة ويُنفى عما سواها، ومن أبرز شواهده قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: 10)، إذ جاءت إنما أداةً لإفادة القصر، فجعلت الأخوة رابطة أساسية بين المؤمنين في السياق الذي يعالج إصلاح ذات البين والنزاع بينهم، ولا تأتي هذه الصيغة بمعزل عن السياق، بل تؤدي وظيفة توجيهية؛ إذ تجعل رابطة الأخوة أساسًا للمعاملة وتدفع إلى الإصلاح والتقارب، وقد تناول القزويني أساليب القصر وبيّن أن اختلاف أدواته يرتبط بدرجة التوكيد وطبيعة المقام الذي يرد فيه الكلام (القزويني، د.ت.: 171/1).

ومن القصر قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (يس: 17)، إذ جاء القصر بالنفي والاستثناء، فحُصر واجب الرسل في البلاغ المبين، ونُفي عنهم ما ليس من وظائفهم، وتظهر أهمية هذا الأسلوب في ضبط دلالة الخطاب وتحديد حدود المسؤولية، إذ يمنع التوسع في نسبة ما ليس من اختصاص الرسول إلى وظيفته، كما أن تركيب النفي والاستثناء يمنح العبارة قوة في التقرير، ويجعل الحكم أكثر تحديدًا ووضوحًا، وقد بيّن القزويني أن القصر بالنفي والاستثناء من أقوى طرائق القصر في تقرير الحكم وتخصيصه، لما يجمعه من نفي وإثبات في تركيب واحد (القزويني، د.ت.: 173/1).

ويتجلى القصر كذلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 23)، حيث جاء النفي والاستثناء لحصر وظيفة الرسول في الإنذار ضمن السياق الذي يقرر طبيعة مهمته، فيتجه الخطاب إلى بيان الوظيفة التي كلف بها، لا إلى تحميله مسؤولية إجبار الناس على الإيمان، وتنبني الدلالة هنا على علاقة وثيقة بين القصر والسياق؛ لأن القصر لا يكتفي بتحديد الوظيفة، بل يوجه فهم المتلقي إلى طبيعة الرسالة وحدودها، ويكشف الجرجاني أن القصر والتخصيص من المعاني التي تتحقق من خلال ترتيب الكلام وعلاقاته، وأن القيمة البلاغية لا تنشأ من الأداة وحدها، وإنما من موقعها في البناء العام (الجرجاني، 1995: 326/1).

كما يسهم التقديم والتأخير والقصر في تحقيق التماسك بين أجزاء الخطاب، لأن العنصر المقدم يصبح محورًا دلاليًا يمكن أن تتصل به الجمل اللاحقة، بينما يعمل القصر على تثبيت العلاقة بين الموضوع والحكم، فيظل مسار المعنى واضحًا أمام المتلقي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (النحل: 60)، فقد تقدم الجار والمجرور لله على المبتدأ، لإبراز اختصاصه سبحانه بالمثل الأعلى، ثم يتصل السياق ببيان ما لا يليق بالله من الصفات، فالتقديم هنا يوجه بؤرة المعنى نحو الله تعالى قبل ذكر الحكم، ويجعل الاختصاص حاضرًا في بنية العبارة، وقد أشار أبو موسى إلى أن تقديم الجار والمجرور قد يؤدي إلى تخصيص المعنى وتقوية الحكم، بحسب ما يقتضيه السياق (أبو موسى، 1980: 142/1).

وتتضح قيمة هذه الآليات بصورة أكبر عند اجتماعها مع المقابلة والتدرج الدلالي، إذ قد يقدم القرآن عنصرًا في مقام ويؤخر نظيره في مقام آخر تبعًا لاختلاف الغرض، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (القارعة: 6–9)، إذ ينتظم السياق في مقابلة دقيقة بين الثقل والخفة، وبين العيشة الراضية والهاوية، فيتوجه ترتيب العناصر نحو إبراز التباين بين المصيرين، ولا يقتصر أثر ذلك على جمال الصياغة، بل يجعل البنية نفسها حاملة للمعنى، لأن ترتيب الألفاظ يوازي ترتيب المصائر في السياق، وقد أشار الرازي إلى أن اختلاف ترتيب المعاني في الأسلوب القرآني يرتبط بالمقاصد التي يقتضيها السياق، وأن التقديم والتأخير قد يؤديان دورًا في إبراز وجوه المقابلة وتقوية الدلالة (الرازي، 1985: 76/31).

ومن خلال هذه النماذج يتضح أن التقديم والتأخير والقصر تعمل بوصفها آليات متكاملة في توجيه الدلالة وتحقيق التماسك البلاغي؛ فالتقديم يحدد بؤرة الاهتمام ويبرز العنصر المراد تعظيمه أو تخصيصه، والتأخير ينظم حركة المعنى وقد يحقق التشويق أو التدرج، بينما يعمل القصر على ضبط العلاقة بين الحكم وموضوعه وتحديد جهة الدلالة، وتتبع قوتها من ارتباطها بالسياق، إذ لا يمكن تفسير العدول في ترتيب الكلمات أو اختيار أسلوب القصر تفسيرًا دقيقًا بعيدًا عن المقام العام للآية، ومن هنا يتأكد أن البلاغة القرآنية لا تقوم على الزخرف اللفظي، وإنما على إحكام العلاقة بين اللفظ والمعنى والسياق، بحيث يؤدي كل ترتيب وظيفة مقصودة في بناء الخطاب، وهذا ما يجعل هذه الآليات من الوسائل الفاعلة في انتقال المعنى القرآني من مجرد الدلالة الخبرية إلى دلالة مركزة ذات توجيه بلاغي واضح، ويكشف في الوقت نفسه عن عمق التماسك بين البنية التركيبية والمقصد الدلالي في الخطاب القرآني.

المطلب الثالث: التكرار والإحالة والتناسب وأثرها في تحقيق الوحدة الدلالية:

يمثل التكرار والإحالة والتناسب ثلاث آليات مترابطة تسهم في إحكام الوحدة الدلالية للخطاب القرآني، إذ تعمل كل آلية منها في مستوى معين، ثم تتكامل فيما بينها لتكوين شبكة من العلاقات التي تحفظ استمرارية المعنى وتمنع تفكك أجزاء النص، فالتكرار يعيد اللفظ أو التركيب أو المعنى في مواضع مختلفة لتحقيق غرض دلالي أو بلاغي، والإحالة تربط العناصر اللغوية بمرجع سابق أو لاحق، أما التناسب فيكشف عن الصلات التي تجمع بين الآيات والمقاطع والسور من حيث الموضوع والمعنى والمقصد، ومن ثم لا ينبغي النظر إلى هذه الظواهر على أنها وسائل شكلية منفصلة، وإنما بوصفها عناصر فاعلة في بناء الخطاب وتوجيه المتلقي إلى محوره الدلالي، وقد بيّن السيوطي أن التكرار في القرآن يأتي لأغراض متعددة، منها التوكيد والتقرير وتعدد المتعلقات، وأن قيمته تتحدد وفق المقام الذي يرد فيه (السيوطي، 1975: 183/3)، وهذا يدل على أن إعادة اللفظ في الخطاب القرآني ليست تكرارًا خاليًا من الوظيفة، بل وسيلة لإعادة تثبيت المعنى وربط أجزاء السياق بعضها ببعض.

ويظهر التكرار بوصفه من أكثر الوسائل وضوحًا في تحقيق الوحدة الدلالية، لأنه يحافظ على حضور فكرة أو لفظ أو تركيب في ذهن المتلقي، حتى مع انتقال الخطاب بين مشاهد أو قضايا متعددة، ومن أبرز شواهده قوله تعالى المتكرر في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: 13)، إذ تأتي هذه الآية عقب مقاطع متنوعة تتناول مظاهر القدرة والخلق والنعم والجزاء، فتعمل بوصفها رابطًا دلاليًا بين هذه المقاطع، وتعيد كل مرة توجيه الانتباه إلى القضية المركزية المتمثلة في تعداد نعم الله وتذكير المخاطبين بها، فالتكرار هنا لا يفصل المقاطع، بل يجمعها في محور واحد، ويجعل كل مقطع جديد امتدادًا لما سبقه من خلال عودة الخطاب إلى العبارة نفسها، وقد أشار الزركشي إلى أن التكرار القرآني يختلف باختلاف المقاصد والسياقات، وأن إعادة اللفظ قد تؤدي وظيفة التأكيد والتقرير وتقوية المعنى في النفس (الزركشي، د.ت.: 10/3).

ويأخذ التكرار صورة أخرى تتمثل في تكرار المعنى مع اختلاف الصياغة، حيث يعاد بناء الفكرة نفسها في تراكيب متعددة، بما يسمح بتثبيتها من جهات مختلفة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ المتكررة في سورة المرسلات، إذ تتعاقب قبلها مشاهد متعددة من دلائل القدرة وأحوال القيامة ومصير المكذبين، ثم تأتي العبارة في نهاية كل مقطع لتربط المقطع الجديد بالنتيجة العامة التي تدور حولها السورة، فالتكرار هنا يقوم بوظيفة تقسيمية من جهة، لأنه يفصل المقاطع، ووظيفة وصلية من جهة أخرى، لأنه يعيدها جميعًا إلى محور واحد، ويكشف هذا الأسلوب عن قدرة التكرار على تنظيم بنية الخطاب، بحيث لا يؤدي تعدد المشاهد إلى تشتيت المعنى، وإنما تتجمع المشاهد حول نتيجة مركزية واحدة، وقد بيّن دراز أن انتظام الآيات والمقاطع القرآنية يقوم على وحدة في المقصد رغم تنوع الأساليب والصور، وأن تكرار بعض المعاني في مواضع مختلفة يرتبط بالبناء العام للخطاب (دراز، 1970: 170/1).

وتتصل بالتكرار الإحالة التي تعد من أهم الوسائل التي تحافظ على استمرارية المرجع داخل النص، إذ تحيل الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة إلى عناصر سبق ذكرها أو سيأتي بيانها، وبذلك تمنع انقطاع المعنى بين الجمل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: 48)، إذ يحيل الضمير في إليك إلى النبي محمد ﷺ، بينما يعود الضمير في يديه إلى الكتاب السابق في السياق، فتتداخل الإحالات في بناء علاقة بين القرآن والكتب السابقة، ولا تقتصر وظيفة الإحالة على الاختصار، وإنما تسهم في حفظ العلاقات الدلالية بين العناصر، إذ يستطيع المتلقي الانتقال من الضمير إلى مرجعه واستعادة المعنى الذي يرتبط به، وقد تناول ابن هشام الضمائر والإحالات في أبواب متعددة من كتابه، وأكد ضرورة وضوح المرجع واستناد الضمير إلى ما يقتضيه السياق (ابن هشام، 1985: 83/1).

وتتضح قيمة الإحالة بصورة أكبر في أسماء الإشارة، لأنها تربط بين حدث أو معنى سابق وعنصر لاحق، فتجعل ما سبق حاضرًا في البنية الجديدة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة: 2)، إذ تؤدي الإشارة في ذلك وظيفة ربطية تجعل المشار إليه حاضرًا في ذهن المتلقي، ثم يأتي وصف الكتاب بأنه هدى للمتقين ليبني على هذا الحضور الدلالة اللاحقة، فالإشارة لا تؤدي مجرد وظيفة التعريف، وإنما تسهم في تنظيم حركة الخطاب، إذ تربط بين المشار إليه وما سيأتي من أوصاف وأحكام متعلقة به، وقد بيّن الجرجاني أن أسماء الإشارة والضمائر وغيرها من الروابط لا تفهم قيمتها بمعزل عن موضعها في النظم، لأن دلالتها تتحدد من خلال العلاقة التي تقيمها مع بقية أجزاء الكلام (الجرجاني، 1995: 196/1).

وتؤدي الأسماء الموصولة بدورها وظيفة إحالية ودلالية في آن واحد، لأنها تربط الاسم بما يأتي بعده من صلة تفسره وتخصص دلالته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: 3)، إذ جاء الموصول الذين ليحيل إلى الفئة المقصودة في سياق الحديث عن المتقين، ثم جاءت صلته مشتملة على مجموعة من الصفات التي تحدد هذه الفئة وتبني معناها، وهنا تتجاوز الإحالة مجرد الربط الشكلي؛ لأنها تفتح مجالًا لتوسيع الدلالة من الاسم الموصول إلى مجموعة من الأفعال والصفات التي تتكامل في رسم صورة المتقين، وقد أشار أبو السعود إلى أن صلات الموصول في القرآن تأتي في مواضع كثيرة لتفصيل المعنى وتحديد المقصود وربط الصفات بالموصوف في سياق متماسك (أبو السعود، 1999: 35/1).

أما التناسب فيمثل مستوى أوسع من التماسك، لأنه يبحث في العلاقات التي تربط بين الآيات والمقاطع، ويكشف عن الحكمة في ترتيب المعاني وانتقال الخطاب من قضية إلى أخرى، ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: 1–4)، إذ تنتظم الآيات في سياق واحد يستعرض مظاهر العناية الإلهية بالنبي ﷺ، فتتتابع النعم من شرح الصدر إلى وضع الوزر ورفع الذكر، ويأتي كل عنصر متممًا للعنصر السابق، ثم يتجه الخطاب بعد ذلك إلى التيسير والفرج في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: 5)، فيتحول السياق من استحضار النعم السابقة إلى تقرير سنة التيسير، فيتولد من ذلك تناسب دلالي بين التجربة الماضية والوعد اللاحق، وقد جعل البقاعي التناسب بين الآيات أساسًا لفهم انتظام السورة، ورأى أن معرفة المناسبة تكشف عن الروابط الدقيقة التي تصل بين أجزاء الكلام (البقاعي، 1969: 24/1).

ويظهر التناسب كذلك في العلاقة بين المعاني المتقابلة، إذ قد ينتقل الخطاب من ذكر فريق إلى ذكر فريق آخر في صورة تجعل المقابلة نفسها عنصرًا من عناصر الوحدة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: 13–14)، فقد انتظمت الآيتان في بنية مقابلة تجعل النعيم والجحيم طرفين متقابلين، والأبرار والفجار جماعتين متباينتين، فتتحدد دلالة كل طرف من خلال علاقته بالطرف الآخر، ولا يؤدي هذا التقابل إلى تفكيك الخطاب، بل يحقق تماسكه؛ لأن المعنيين المتضادين يشكلان معًا وحدة دلالية قائمة على بيان نتيجة السلوك الإنساني، وقد تناول القزويني المقابلة ضمن الأساليب التي تزيد المعنى وضوحًا وقوة، لأن جمع المعاني المتضادة في سياق واحد يبرز الفروق بينها ويحقق تناسبًا في البناء (القزويني، د.ت.: 198/1).

كما يتجلى التناسب في العلاقة بين المطلع والخاتمة، حيث قد تبدأ السورة بقضية ثم تنتهي بما يعيد تأكيدها أو يستكمل دلالتها، ومن ذلك سورة الكوثر، التي يقول تعالى في مطلعها: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر: 1)، ثم تنتقل إلى توجيه النبي ﷺ إلى العبادة، وتنتهي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر: 3)، فالسورة تنتظم حول معنى العطاء الإلهي في مواجهة موقف المعاندين، ويتصل الأمر بالصلاة والنحر بما يترتب على هذا العطاء من شكر وعبادة، ثم تأتي الخاتمة لتقرر زوال أثر المبغض، وقد بيّن البقاعي أن النظر في مناسبات مطالع السور وخواتمها يكشف عن روابط موضوعية وبلاغية تساعد على إدراك الوحدة الكلية للسورة (البقاعي، 1969: 32/1).

ويؤدي التكرار والإحالة والتناسب وظيفة مشتركة تتمثل في تثبيت المحور الدلالي للنص، فالتكرار يعيد العنصر أو المعنى إلى الواجهة، والإحالة تصل الحاضر بالسابق أو اللاحق، والتناسب يربط الوحدات الكبرى في إطار موضوعي شامل، ومن ثم فإن اجتماع هذه الآليات يفسر جانبًا من قدرة الخطاب القرآني على الجمع بين التنوع والوحدة؛ فقد تتعدد الآيات والمشاهد والأحكام، لكن العلاقات الداخلية تجعلها تنتظم في مسار دلالي واحد، ويشير الزركشي إلى أن معرفة المناسبات بين الآيات تعين على فهم وجوه الارتباط بينها، وأن هذا الارتباط قد يكون لفظيًا أو معنويًا أو موضوعيًا (الزركشي، د.ت.: 36/1)، وبذلك يصبح التناسب امتدادًا طبيعيًا للتماسك الذي تحققه الإحالة والتكرار على مستوى الجملة والمقطع.

وتكشف هذه الآليات كذلك عن أن الوحدة الدلالية في الخطاب القرآني لا تعني وحدة الألفاظ، وإنما تعني استمرار العلاقات بين المعاني رغم تنوع طرائق التعبير، فقد يتكرر اللفظ لتحقيق التوكيد، وقد يستعاض عنه بضمير أو إشارة حفاظًا على استمرارية المرجع، وقد ينتقل الخطاب إلى لفظ جديد مع بقاء الصلة الموضوعية بينه وبين ما سبقه، ومن هنا تظهر مرونة البناء القرآني؛ إذ لا يعتمد على وسيلة واحدة لتحقيق التماسك، بل يوزع

وظائفه بين وسائل لفظية ودلالية وسياقية، وقد بيّن دراز أن الائتلاف بين أجزاء القرآن لا يقوم على التشابه اللفظي وحده، وإنما يتأسس على وحدة الغرض وتآلف المعاني في السياق العام (دراز، 1970: 171/1).

وعليه، فإن التكرار والإحالة والتناسب تمثل منظومة متكاملة لتحقيق الوحدة الدلالية في الخطاب القرآني؛ فالتكرار يرسخ المعنى ويعيد ربط المقاطع بمحورها، والإحالة تحافظ على استمرارية المرجع وتمنع انقطاع العلاقات بين الجمل، أما التناسب فيتولى تنظيم العلاقات على مستوى الآيات والمقاطع والسور، ومن خلال تفاعل هذه الآليات يصبح الخطاب القرآني قادرًا على الانتقال من معنى إلى آخر مع المحافظة على وحدة البناء، وتتحول الروابط الجزئية إلى شبكة كلية توجه المتلقي نحو المقصد العام، وهذا يؤكد أن التماسك البلاغي في القرآن يتجاوز حدود الترابط النحوي الظاهر إلى نظام عميق تتساند فيه الألفاظ والتراكيب والمعاني والسياقات، بحيث يؤدي كل عنصر وظيفته في بناء خطاب متكامل ومتنامي الدلالة.

المطلب الرابع: التشبيه والاستعارة والكناية ودورها في التماسك وبناء المعنى:

تُعدّ التشبيهات والاستعارات والكنايات من أبرز الآليات البيانية التي تسهم في تحقيق التماسك البلاغي في الخطاب القرآني، إذ لا تقتصر وظيفتها على إضفاء الجمال على التعبير، وإنما تتجاوز ذلك إلى تنظيم المعنى وربط أجزائه وإكسابه قدرة أكبر على التأثير والإيحاء، فالصورة البيانية في القرآن الكريم تأتي مرتبطة بالسياق الذي تنتظم فيه، وتعمل على نقل المعاني المجردة إلى صور محسوسة أو قريبة من الحس، أو تكثيف الدلالة في تركيب موجز قادر على استحضار معانٍ متعددة، ومن هنا فإن العلاقة بين البيان والتماسك تقوم على أن الصورة لا تأتي منفصلة عن مسار الخطاب، بل تؤدي دورًا في استمرار الموضوع وتفسيره وتعميقه، بحيث يصبح التشبيه أو الاستعارة أو الكناية جزءًا من البنية الدلالية الكلية، وقد أكد الجرجاني أن قيمة الصورة لا تكمن في مجرد نقل المعنى إلى صورة أخرى، وإنما في الطريقة التي تتألف بها عناصرها وما تنشئه من علاقات بين المعاني (الجرجاني، 1995: 263/1)، وبذلك يغدو الأسلوب البياني وسيلة لربط المعنى المجرد بالسياق الذي يوجهه، وتحقيق الانسجام بين أجزاء الخطاب.

ويقوم التشبيه على إقامة علاقة بين طرفين يشتركان في صفة أو أكثر، وهو في الخطاب القرآني وسيلة فعالة لتقريب المعاني وتجسيدها، فضلًا عن دوره في تنظيم العلاقات الدلالية بين المشبه والمشبه به، ومن أبرز الشواهد قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ (البقرة: 261)، فقد ربط القرآن بين الإنفاق في سبيل الله وبين صورة الحبة التي تتضاعف ثمرتها، فتحول المعنى المعنوي المتمثل في مضاعفة الأجر إلى مشهد حسي متنامٍ، وتكمن وظيفة التشبيه التماسكية في أنه يجمع عناصر المعنى في صورة واحدة؛ فالإنفاق، والنماء، والمضاعفة، والجزاء تتصل داخل مشهد الحبة والسنابل، مما يجعل الصورة إطارًا جامعًا للمعاني المتفرقة، وقد بيّن الزمخشري أن التمثيل يقرّب المعنى إلى النفس ويجعله أوضح وأثبت في الإدراك، لأن المعنى المجرد حين ينقل إلى صورة محسوسة يصبح أكثر تأثيرًا (الزمخشري، 2002: 309/1).

ويتجلى التشبيه في صورة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ (النور: 39)، إذ تشبه الآية أعمال الكافرين بالسراب الذي يظنه الظمآن ماءً، ثم ينكشف له عند الوصول إليه أنه لا شيء، وتقوم الصورة على سلسلة مترابطة من العناصر: ظمأ، ووهم، وسعي، ثم انكشاف الحقيقة، وهي عناصر تتوافق مع المعنى المقصود في تصوير خيبة الأمل وبطلان العمل، وهنا يسهم التشبيه في بناء المعنى عبر ترتيب المشهد من بدايته إلى نهايته، فلا تكون الصورة مجرد وصف لحالة، بل تصبح بنية سردية مصغرة تحافظ على وحدة الدلالة، وقد أشار الرازي إلى أن الأمثال القرآنية تقرب المعاني العقلية إلى الفهم عن طريق الصور الحسية، وتكشف ما يترتب على المواقف والأعمال من نتائج (الرازي، 1985: 26/24).

كما يسهم التشبيه في الربط بين المعنى الفردي والمقصد العام للسياق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: 5)، فقد أقيم التشبيه على صورة الحيوان الذي يحمل الكتب دون أن ينتفع بما فيها، لتجسيد حالة من يحمل العلم دون أن يعمل بمقتضاه، وتعمل الصورة على الربط بين المعرفة والمسؤولية، فتجعل المشبه به أداة لتفسير المعنى الأخلاقي الذي يتجه إليه السياق، وقد أشار القرطبي إلى أن هذا المثل يوضح قبح حمل العلم مع ترك العمل به، ويجعل المعنى أقرب إلى الإدراك من خلال الصورة الحسية (القرطبي، 1988: 89/18)، وبذلك يتضح أن التشبيه يؤدي وظيفة تفسيرية وتماسكية، لأنه يربط الحكم المجرد بالمشهد الذي يوضحه ويثبته.

أما الاستعارة فتتميز بقدرتها على نقل المعنى من مجاله الأصلي إلى مجال آخر يقوم على المشابهة، فتمنح المفهوم المجرد حركة وصورة وحضورًا محسوسًا، ومن أبلغ شواهدها قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم: 4)، فقد صُوّر انتشار الشيب في الرأس بصورة النار حين تنتشر في الشيء وتستولي عليه، فأسند الاشتعال إلى الرأس على سبيل الاستعارة، وتنبع قوة هذه الصورة من أنها لا تخبر عن كثرة الشيب فحسب، وإنما تجعل الكبر مشهدًا حيًا متحركًا، فتربط الحالة الجسدية بالحالة النفسية التي يعيشها زكريا عليه السلام في مقام الدعاء، وقد تناول الزمخشري هذه الصورة بوصفها من التعبيرات التي تكثف المعنى وتجعله أكثر حضورًا في الحس والخيال (الزمخشري، 2002: 8/3).

ومن الاستعارة قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (السجدة: 14)، إذ استُعمل فعل ذوقوا في سياق العذاب، وهو فعل يرتبط في أصله بإدراك الطعم، فنقل إلى معنى إدراك العذاب والمعاناة، وتعمل هذه الاستعارة على تجسيد الألم وجعله كأنه شيء محسوس يمكن تذوقه، فتقرب أثر

العذاب إلى إدراك المتلقي، كما أن ارتباط الفعل بما سبقه من نسيتم لقاء يومكم هذا يجعل الصورة جزءًا من علاقة سببية بين النسيان والجزاء، فتتضافر الاستعارة مع السياق في بناء المعنى، وقد أكد أبو موسى أن الاستعارة القرآنية لا تقوم على مجرد العدول عن الحقيقة، وإنما تتصل بخصائص التركيب والسياق الذي يجعل الصورة أكثر ملاءمة للغرض المقصود (أبو موسى، 1980: 215/2).

وتؤدي الاستعارة دورًا واضحًا في تحويل المعاني المعنوية إلى حركات ومشاهد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء: 24)، إذ صُوِّر التواضع والرحمة بالوالدين بصورة الطائر الذي يخفض جناحه، فأصبحت قيمة معنوية مجردة في صورة حركية محسوسة، وتعمل الصورة على بناء علاقة بين السلوك الداخلي والتعبير الخارجي، فيتضح معنى الرحمة والتواضع من خلال الحركة المتخيلة، وقد بيّن القزويني أن الاستعارة قد تبلغ من القوة مبلغًا تجعل المعنى كأنه مشاهد محسوس، وهو ما يزيد أثرها في النفس ويقوي اتصال أجزاء الخطاب (القزويني، د.ت.: 229/1).

أما الكناية فتقوم على التعبير عن المعنى بلفظ لازم له مع إمكان إرادة المعنى الأصلي، وتتميز بقدرتها على الإيحاء والتلميح دون التصريح المباشر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (النساء: 43)، فقد استعملت لامستم في سياق الطهارة، وهي كناية لطيفة عن العلاقة الزوجية في تفسير عدد من أهل العلم، فجاء التعبير ملائمًا لمقام الحديث عن أحكام الطهارة وآداب الخطاب، وتعمل الكناية هنا على تحقيق التناسب بين المعنى والتعبير، إذ يُعرض الحكم الشرعي في صيغة تحفظ أدب الخطاب وتناسب طبيعة الموضوع، وقد بيّن القزويني أن الكناية من الأساليب التي يُقصد بها إثبات معنى عن طريق ذكر لازمه، مما يمنح التعبير قدرة على الإيحاء تتجاوز التصريح المباشر (القزويني، د.ت.: 236/1).

ومن الكناية قوله تعالى: ﴿وَغَضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (النور: 30)، إذ لا يعني غض البصر إغلاقه، وإنما خفضه وكفه عن النظر إلى ما لا يحل، فجاء التعبير بصورة تجمع بين المعنى الحسي والتوجيه الأخلاقي، ويسهم هذا الأسلوب في بناء المعنى بطريقة تدريجية، لأن المتلقي ينتقل من معنى الغض الحسي إلى المعنى السلوكي المقصود من خلال السياق، وقد أشار أبو السعود إلى أن اختيار الألفاظ في القرآن يرتبط بمقام الخطاب ودقة المقصد، وأن التعبير غير المباشر قد يكون أبلغ في أداء المراد من التصريح (أبو السعود، 1999: 166/6).

وتظهر الكناية كذلك في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (البقرة: 10)، إذ استعمل المرض للدلالة على فساد الاعتقاد واضطراب الباطن، فانتقلت الكلمة من المجال الحسي إلى المجال المعنوي، وتعمل هذه الصورة على تكثيف وصف المنافقين؛ فالمرض في السياق ليس مرضًا جسديًا، وإنما حالة معنوية قابلة للزيادة والتمكن، وبذلك يتحول المعنى الأخلاقي إلى حالة محسوسة يسهل تصورها، وقد بيّن البيضاوي أن التعبير عن فساد القلوب بالمرض من قبيل التصوير الذي يقرب المعنى ويكشف عن أثره في صاحبه (البيضاوي، 1999: 36/1).

ويظهر التكامل بين التشبيه والاستعارة والكناية في أن هذه الأساليب جميعًا تعمل على إقامة صلات بين عناصر متباعدة ظاهريًا، ثم تجمعها في بنية دلالية واحدة، فالتشبيه يربط بين المشبه والمشبه به بعلاقة واضحة، والاستعارة تنقل صفات مجال إلى مجال آخر لتجسيد المعنى، والكناية تجعل المعنى المقصود حاضرًا من خلال لازمه، ومن هنا تسهم الصور البيانية في تماسك الخطاب لأنها تربط المعنى بالسياق وتمنحه امتدادًا داخل النص، ويؤكد الجرجاني أن الصورة البلاغية لا تُفهم منفصلة عن النظم الذي وردت فيه، وأن جمالها وقوتها ناشئان من علاقتها بسائر أجزاء الكلام (الجرجاني، 1995: 263/1).

ويتضح أثر هذه الآليات في تعميق الوحدة الدلالية عندما تأتي الصورة متصلة بما قبلها وما بعدها، فتفسر معنى سابقًا أو تمهد لمعنى لاحق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: 103)، فقد صُوِّرت رابطة الإيمان والجماعة بصورة الحبل الذي يُعتصم به، فأصبحت الوحدة الاجتماعية والدينية في صورة محسوسة تجمع أفراد الجماعة حول عنصر واحد، ثم يأتي النهي عن التفرق متصلًا بهذه الصورة، فتتولد علاقة دلالية بين الاعتصام والوحدة من جهة، والتفرق وترك الحبل من جهة أخرى، وقد بيّن أبو السعود أن التصوير بالحبل يوضح شدة التعلق بالدين والاجتماع عليه، ويجعل المعنى أكثر تأثيرًا في النفس (أبو السعود، 1999: 68/2).

ومن ثم فإن التشبيه والاستعارة والكناية لا تؤدي وظيفة جمالية فحسب، وإنما تشارك في إنتاج المعنى وتماسكه وتوجيهه؛ فالصورة التشبيهية تجمع عناصر المعنى في مشهد واحد، والاستعارة تمنح المفاهيم المجردة حركة وحضورًا، والكناية تتيح بناء الدلالة بطريقة إيحائية تتناسب مع المقام، وتكمن قيمة هذه الآليات في ارتباطها بالسياق، إذ لا يمكن فصل الصورة عن الغرض الذي وردت من أجله أو عن العلاقات التي تربطها ببقية عناصر الخطاب، وقد أشار دراز إلى أن التعبير القرآني يقوم على تناسب دقيق بين اللفظ والمعنى والسياق، بحيث يؤدي كل اختيار لغوي وظيفته ضمن البناء الكلي (دراز، 1970: 170/1)، وعليه فإن التماسك البياني يمثل أحد المستويات الأساسية للتماسك البلاغي، لأنه يجعل الصورة جزءًا من بنية المعنى لا عنصرًا زخرفيًا زائدًا، ويكشف عن قدرة الخطاب القرآني على الجمع بين جمال التعبير ودقة الدلالة ووحدة البناء.

المبحث الثالث: أثر التماسك البلاغي في بناء المعنى القرآني دراسة تطبيقية:

يظهر أثر التماسك البلاغي في الخطاب القرآني بصورة أكثر وضوحًا عند الانتقال من الجانب النظري إلى التطبيق، إذ تكشف النماذج القرآنية عن تفاعل مستويات متعددة من التماسك في تشكيل المعنى وتوجيه الدلالة، فلا يقتصر أثرها على تحقيق الترابط بين أجزاء النص، بل يمتد إلى تعميق المعاني وإبراز العلاقات الدقيقة بين الألفاظ والتراكيب والصور البيانية والسياقات المختلفة، ومن هنا يتناول هذا المبحث أثر التماسك البلاغي في

بناء المعنى القرآني من خلال دراسة تطبيقية لنماذج مختارة، وقد قُسّم إلى أربعة مطالب؛ يتناول المطلب الأول التماسك التركيبي وأثره في بناء المعنى، ويبحث المطلب الثاني التماسك المعجمي والدلالي وأثره في توجيه الدلالة، ويتناول المطلب الثالث التماسك البياني وأثره في تعميق المعنى وإثرائه، بينما يخصص المطلب الرابع لبيان تكامل آليات التماسك البلاغي في بناء المعنى الكلي للخطاب القرآني.

المطلب الأول: التماسك التركيبي وأثره في بناء المعنى في نماذج قرآنية مختارة:

يمثل التماسك التركيبي أحد المستويات الأساسية في بناء الخطاب القرآني، إذ يتحقق من خلال انتظام العلاقات بين الكلمات والجمل، وترابط عناصر التركيب بواسطة الحذف والذكر، والتقديم والتأخير، والوصل والفصل، والضمائر، وأدوات الشرط والعطف وغيرها من الوسائل التي تجعل كل جزء من أجزاء النص متصلًا بما يسبقه أو يلحقه، ولا تقتصر أهمية هذا التماسك على المحافظة على سلامة البناء النحوي، وإنما تمتد إلى توجيه المعنى وتحديد العلاقات الدلالية بين مكونات الخطاب، وقد أكد الجرجاني أن النظم يقوم على وضع الكلام في الموضع الذي يقتضيه المعنى، وأن اختلاف الترتيب يؤدي إلى اختلاف الدلالة (الجرجاني، 1995: 50/1)، ومن ثم فإن التركيب القرآني يمثل بنية دلالية متكاملة، يتفاعل فيها الموقع النحوي مع المقصد البلاغي.

ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: 5)، إذ تقدم المفعول به إياك على الفعل، فانتقل التركيب من مجرد الإخبار بالعبادة والاستعانة إلى الدلالة على الاختصاص، فأصبح الترتيب التركيبي وسيلة لبناء معنى عقدي واضح، كما أن تكرار إياك قبل الفعل الثاني أسهم في المحافظة على استقلال الفعلين مع اتحادهما في جهة التوجه، فانتظم التركيب في وحدة دلالية متماسكة، وقد بيّن أبو موسى أن التقديم في مثل هذه التراكيب لا ينفصل عن العناية بالمعنى وإبراز العنصر الذي يتوجه إليه الحكم (أبو موسى، 1980: 121/1).

ويظهر التماسك التركيبي كذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: 34)، حيث أقيمت العلاقة بين جملة الشرط وجوابه على ترابط نحوي ودلالي محكم؛ فالفعل تعدوا يرتبط بـ لا تحصوها في بناء يكشف عجز الإنسان عن الإحاطة بنعم الله مهما حاول إحصاءها، وتعمل أداة الشرط على وصل المقدمة بالنتيجة، فلا تستقل الجملة الثانية عن الأولى، وإنما تستمد دلالتها منها، وقد أشار ابن هشام إلى أن أدوات الشرط تحقق الربط بين الجمل، وتجعل الجواب مترتبًا على الشرط في البناء والمعنى (ابن هشام، 1985: 613/2).

ومن النماذج الدالة على التماسك التركيبي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 216)، إذ ينتظم التركيب في مقابلة واضحة بين يعلم ولا تعلمون، فينشأ التماسك من التقابل التركيبي والدلالي معًا، وقد جعل هذا البناء المعرفة الإلهية في جهة، وقصور المعرفة الإنسانية في الجهة المقابلة، فصار التركيب ذاته حاملًا للمعنى، ويكشف ذلك عن أن التماسك لا يتحقق بالروابط الظاهرة وحدها، وإنما قد ينتج عن التوازن بين الجمل وتقابل عناصرها.

ويتجلى أثر التماسك التركيبي في بناء المعنى أيضًا في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (القارعة: 6–9)، إذ أسهمت أدوات التفصيل والشرط والجواب في تنظيم الآيات داخل بناء متوازن يقوم على المقابلة بين الثقل والخفة، وبين العيشة الراضية والهاوية، فكل جملة تستجيب لما قبلها وتؤدي إلى ما بعدها، الأمر الذي يجعل المعنى يتحرك بصورة متدرجة نحو بيان اختلاف المصير، وقد أكد القزويني أن ترتيب الجمل وعلاقاتها من أهم الوسائل التي تكشف عن وجوه التناسب بين المعاني وتحقق إحكام الكلام (القزويني، د.ت.: 143/1).

وهكذا يتبين أن التماسك التركيبي في الخطاب القرآني لا يمثل مجرد انتظام نحوي، بل هو آلية أساسية في إنتاج المعنى وتوجيهه؛ فالتقديم يبرز المقصود، والشرط يربط السبب بالنتيجة، والتقابل ينظم العلاقات بين المعاني، والتكرار التركيبي يحافظ على استمرارية البناء، ولذلك تتكامل البنية النحوية مع الوظيفة البلاغية، فيصبح التركيب نفسه حاملًا للدلالة، ويغدو ترابط أجزاء الآية أو المقطع أساسًا في إدراك المعنى الكلي للنص القرآني.

المطلب الثاني: التماسك المعجمي والدلالي وأثره في توجيه الدلالة:

يُعدّ التماسك المعجمي والدلالي من المستويات المهمة في بناء الخطاب القرآني، إذ يتحقق من خلال العلاقات التي تنشأ بين الألفاظ والمعاني داخل السياق، سواء أكانت هذه العلاقات قائمة على التكرار، أو الترادف، أو التضاد، أو الاشتقاق، أو المصاحبة الدلالية، أو ارتباط مجموعة من الألفاظ بمحور موضوعي واحد، وتنبع أهميته من أن اللفظة القرآنية لا تستمد دلالتها من معناها المعجمي المجرد فحسب، وإنما تتحدد قيمتها من خلال موقعها وعلاقتها بما يحيط بها من ألفاظ ومعانٍ، ولذلك فإن التماسك المعجمي يسهم في المحافظة على استمرارية الموضوع، بينما يعمل التماسك الدلالي على توجيه العلاقات بين الأفكار والمقاصد، وقد أشار ابن منظور إلى تعدد دلالات اللفظ العربي واتساع استعمالاته بحسب السياق، مما يجعل السياق عنصرًا حاسمًا في تحديد المراد من اللفظة (ابن منظور، 1994: 8/1).

ويظهر أثر التكرار المعجمي في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (العصر: 1–3)، إذ تنتظم ألفاظ السورة حول محور دلالي واحد يتمثل في الإنسان ومصيره، ثم يأتي الاستثناء ليحدد الفئة الناجية من الخسران، فالألفاظ آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر تنتمي إلى مجال دلالي واحد، وتتساند لتكوين صورة متكاملة للنجاة، وقد بيّن الراغب الأصفهاني

أن فهم الألفاظ القرآنية ينبغي أن يراعى فيه ارتباطها بالمقاصد والمعاني التي وردت ضمنها، لأن اللفظة قد تتسع دلالتها أو تتخصص بحسب السياق (الأصفهاني، د.ت.: 25/1).

ويتحقق التماسك الدلالي كذلك من خلال التضاد، وهو من الوسائل التي تجمع المعاني المتقابلة في بنية واحدة، فيتحدد كل معنى من خلال علاقته بضده، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ (الليل: 1–3)، إذ تقوم الآيات على تقابل الليل والنهار، والذكر والأنثى، فينشأ من هذا التقابل انتظام دلالي يعزز وحدة السياق، ولا يعمل التضاد هنا على الفصل بين المعاني، بل يجعلها متآزرة في الكشف عن ثنائية التنوع التي يقوم عليها السياق، وقد أشار القزويني إلى أن المقابلة بين المعاني المتضادة تقوي الدلالة وتوضح الفروق بينها، فتزداد الصورة وضوحًا في ذهن المتلقي (القزويني، د.ت.: 198/1).

ومن مظاهر التماسك المعجمي الاشتقاق، إذ تتصل مجموعة من الألفاظ بجذر لغوي واحد، فتتولد بينها صلات لفظية ودلالية تحافظ على وحدة الموضوع، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 173)، حيث تتكرر صيغ المشتقات المرتبطة بمعاني المغفرة والرحمة في سياقات متعددة، فتسهم في إبراز أحد المحاور الدلالية الكبرى في الخطاب القرآني، وتكشف هذه الصلات عن ثراء النظام المعجمي للقرآن؛ إذ يتيح الاشتقاق المحافظة على الجذر الدلالي مع اختلاف الصيغ والوظائف السياقية، وقد أوضح ابن جني أن الاشتقاق يكشف عن صلات بين الألفاظ من خلال أصولها اللغوية، وأن اختلاف الصيغ قد يرتبط باختلاف المعاني والوظائف (ابن جني، 1990: 134/2).

كما يتحقق التماسك الدلالي من خلال المصاحبة المعجمية، حيث تجتمع ألفاظ في سياق واحد بسبب ارتباطها الموضوعي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء: 103)، إذ تتآزر ألفاظ الصلاة، المؤمنين، كتابًا، موقوتًا لتكوين حقل دلالي مرتبط بالتكليف والعبادة والزمن، فكل لفظ يضيف عنصرًا إلى المعنى العام، ولا يمكن فهم دلالة التركيب بصورة مكتملة بمعزل عن العلاقات التي تجمع هذه الألفاظ، وقد بيّن أبو السعود أن انتظام الألفاظ في السياق القرآني يحقق اتصالًا بين المعاني ويجعل كل عنصر مؤديًا لوظيفته ضمن البناء العام (أبو السعود، 1999: 264/2).

ويتجلى التماسك الدلالي أيضًا في الترادف السياقي أو تقارب المعاني، إذ قد تتجاور ألفاظ متقاربة لتؤدي وظائف مختلفة داخل السياق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 2)، فالنفي في لا ريب يمهد للانتقال إلى وصف الكتاب بالهدى، فتتصل دلالة اليقين بدلالة الهداية في بناء واحد؛ لأن انتفاء الشك يؤسس لقبول الهداية والانتفاع بها، وقد أشار البيضاوي إلى أن وصف القرآن بالهدى مرتبط بكونه موصلًا إلى الحق ومرشدًا إليه، فانتظم الوصف ضمن السياق الذي يقرر خصائص الكتاب (البيضاوي، 1999: 28/1).

ومن أقوى مظاهر التماسك المعجمي الحقل الدلالي، حيث تنتظم مجموعة من الألفاظ حول موضوع مشترك، كما في قوله تعالى: ﴿الْجَنَّةُ وَالنَّعِيمُ وَالْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ضمن السياقات القرآنية التي تتحدث عن الجزاء، إذ تتعاون الألفاظ ذات الصلة بالجزاء والثواب في بناء تصور متكامل للمصير الأخروي، وفي المقابل تتكرر ألفاظ مثل النار، العذاب، الجحيم، الخزي في سياقات الوعيد، فتتشكل شبكة معجمية متماسكة تقابل شبكة النعيم والثواب، وقد أشار الزمخشري إلى أن اجتماع الألفاظ المتقاربة في السياق الواحد يقوي المعنى ويربط أجزاء الصورة الدلالية بعضها ببعض (الزمخشري، 2002: 47/1).

ويتضح أثر التماسك الدلالي في توجيه الدلالة بحسب السياق من خلال قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: 103)، إذ تتصل ألفاظ اعتصموا، حبل، جميعًا، لا تفرقوا بعلاقة دلالية متكاملة، فالحبل يمثل رمزًا للتمسك والوحدة، بينما يؤدي النهي عن التفرق إلى استكمال المقصد الاجتماعي والديني للآية، وهنا لا تعمل الألفاظ منفردة، وإنما تتضافر لتكوين معنى الوحدة والاعتصام، وقد بيّن دراز أن نظم القرآن يقوم على تناسب دقيق بين الألفاظ والمعاني، بحيث تتجه عناصر التعبير إلى مقصد واحد متكامل (دراز، 1970: 170/1).

وعليه فإن التماسك المعجمي والدلالي يسهم في توجيه الدلالة القرآنية وتثبيت وحدتها من خلال شبكة واسعة من العلاقات بين الألفاظ والمعاني؛ فالتكرار يحافظ على حضور المحور، والتضاد يبرز الفروق، والاشتقاق يربط الألفاظ بأصولها، والمصاحبة المعجمية تجمع الكلمات المتآلفة في مجال واحد، بينما يعمل الحقل الدلالي على بناء صورة موضوعية متكاملة، ومن ثم لا يكون المعنى القرآني نتيجة لفظ منفرد، وإنما حصيلة تفاعل الألفاظ والعلاقات التي تنتظم بينها داخل السياق، وهو ما يجعل التماسك المعجمي والدلالي عنصرًا أساسيًا في الكشف عن وحدة الخطاب القرآني وثرائه الدلالي.

المطلب الثالث: التماسك البياني وأثره في تعميق المعنى وإثرائه:

يمثل التماسك البياني مستوى متقدمًا من مستويات التماسك في الخطاب القرآني، لأنه يقوم على انتظام الصور البلاغية داخل السياق، وتفاعل التشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل والمجاز مع المعنى الذي يوجهه الخطاب، فالصورة البيانية في القرآن الكريم لا تأتي منفصلة عن البناء العام للآية، وإنما تتصل بما قبلها وما بعدها لتؤدي وظيفة دلالية محددة، فتجعل المعنى المجرد محسوسًا، أو تكشف عن أبعاده النفسية، أو تختصر مجموعة من الدلالات في صورة واحدة، ومن ثم فإن التماسك البياني لا يعني مجرد تجاور الصور البلاغية، وإنما يعني قدرة هذه الصور على خدمة محور

دلالي مشترك والمحافظة على استمرارية المعنى، وقد أكد الجرجاني أن الصورة لا تكتسب قيمتها من اللفظ منفردًا، وإنما من العلاقات التي تنشأ بين أجزاء الكلام ومن طريقة تأليف المعاني وترتيبها (الجرجاني، 1995: 263/1).

ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: 257)، إذ تقوم الآية على صورة بيانية متكاملة تجعل الظلمات والنور إطارًا دلاليًا يجسد الانتقال من الضلال إلى الهداية، ومن الكفر إلى الإيمان، فالفعلان يخرجهم وإلى يضفيان على المعنى حركة واضحة، فيتحول الإيمان من مفهوم مجرد إلى مسار تنتقل فيه النفس من حال إلى حال، وتزداد قوة التماسك لأن الصورة مرتبطة بالفعل والفاعل والمفعول، فكل عنصر في التركيب يسهم في بناء المشهد الواحد، وقد بيّن الزمخشري أن التعبير بالظلمات والنور من أقوى وجوه التمثيل في تصوير الانتقال من الضلال إلى الهدى (الزمخشري، 2002: 303/1).

ويظهر التماسك البياني كذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ (إبراهيم: 18)، إذ تنتظم الصورة في سلسلة مترابطة تبدأ بالعمل وتنتهي بزوال أثره، فجاء الرماد ليجسد ضياع العمل، ثم جاءت الريح واليوم العاصف لتكمل مشهد التبدد والانعدام، ولا تؤدي هذه العناصر وظائف منفصلة، بل يتساند بعضها مع بعض لتكوين صورة كلية واحدة تشرح مصير الأعمال التي لا تقوم على الإيمان، وقد أشار الرازي إلى أن التمثيل بالرماد المتفرق يوضح شدة ضياع العمل واستحالة الانتفاع به، فينتقل المعنى من التجريد إلى المشاهدة الذهنية (الرازي، 1985: 71/19).

ومن مظاهر التماسك البياني التشبيه التمثيلي الذي يجمع عددًا من العناصر في صورة مركبة، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ (البقرة: 261)، فالصورة تبدأ بالحبة ثم تتنامى إلى السنابل ثم إلى مئات الحبات، وهو تدرج تصويري يتلاءم مع معنى مضاعفة الأجر، وبذلك أصبح النمو الحسي معادلًا لنمو الجزاء، وأصبح المشهد البياني وسيلة لتفسير المعنى وإثرائه، لا مجرد وسيلة للزينة، وقد بيّن القرطبي أن هذا المثل يوضح مضاعفة أجر المنفق، ويقرب المعنى إلى النفس بصورة محسوسة (القرطبي، 1988: 348/3).

وتؤدي الاستعارة وظيفة بارزة في تعميق المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم: 4)، إذ صُوِّر انتشار الشيب في الرأس بانتشار النار، فاختُزل معنى الكثرة والانتشار والامتداد في صورة واحدة، وتكمن قوة الصورة في أنها لا تقدم معلومة عن الشيب فحسب، وإنما تنقل المتلقي إلى مشهد حركي يشعر فيه بانتشار الشيب وسيطرته على الرأس، مما يتلاءم مع مقام الدعاء الذي يعبر فيه زكريا عليه السلام عن ضعفه وكبر سنه، وقد تناول الزمخشري هذا التعبير باعتباره تصويرًا بالغ القوة لشدة انتشار الشيب في الرأس (الزمخشري، 2002: 8/3).

وتتجلى قيمة الكناية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء: 29)، إذ جاءت الصورة لتوجيه السلوك المالي من خلال تمثيله بحركة اليد، فغل اليد كناية عن البخل، وبسطها كل البسط كناية عن الإسراف، وقد جمع السياق بين طرفين متقابلين، ثم وجه إلى الاعتدال بينهما، فأصبح التعبير البياني وسيلة لتحديد الموقف السلوكي بصورة واضحة ومؤثرة، وقد أشار أبو السعود إلى أن التعبير باليد في هذا الموضع يصور البخل والإسراف تصويرًا يقربهما إلى الحس ويجعل النهي عنهما أكثر تأثيرًا (أبو السعود، 1999: 174/5).

كما يسهم التماسك البياني في إثراء الدلالة النفسية، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: 46)، إذ انتقل التعبير من العمى الحسي إلى العمى المعنوي، فأصبح فقدان البصيرة أشد من فقدان البصر، ويعمل هذا الانتقال على توسيع الدلالة من الحالة الجسدية إلى الحالة النفسية والعقلية، فيكشف عن أن المشكلة الحقيقية ليست في العين التي ترى، وإنما في القلب الذي لا يدرك الحق، وقد بيّن أبو موسى أن العدول البياني في مثل هذه التراكيب يوسع المعنى ويمنحه أبعادًا لا يؤديها التعبير المباشر (أبو موسى، 1980: 215/2).

ويتضح التماسك البياني أيضًا من خلال استمرار الصورة داخل السياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (الذاريات: 47–48)، إذ تقوم الألفاظ بنيناها، فرشناها، الماهدون على تصوير الكون في هيئة بناء وفراش مهيأ، فتتضافر الصور لتأكيد مظاهر القدرة والإبداع، وهنا تتجاوز الصورة حدود اللفظ المفرد لتصبح شبكة بيانية تخدم مقصدًا واحدًا، هو إبراز القدرة الإلهية في الخلق، وقد أكد دراز أن التعبير القرآني يقوم على تناسب محكم بين الصورة والمعنى والسياق، بحيث يؤدي كل عنصر وظيفته داخل البناء الكلي (دراز، 1970: 170/1).

ومن ثم فإن التماسك البياني يسهم في تعميق المعنى القرآني وإثرائه من خلال تحويل الأفكار إلى صور مترابطة، وربط المجرد بالمحسوس، وإبراز الأبعاد النفسية والدلالية التي قد يصعب التعبير عنها بالأسلوب المباشر، فالتشبيه يوضح المعنى من خلال المقارنة، والاستعارة تمنحه حركة وحضورًا، والكناية تفتح أمامه مجال الإيحاء، بينما يعمل التمثيل على جمع عناصر متعددة في صورة كلية، وبذلك تصبح الصورة البيانية جزءًا من هندسة الخطاب لا عنصرًا منفصلًا عنه، وتتفاعل مع الألفاظ والتراكيب والسياق في إنتاج المعنى، وهذا ما يجعل التماسك البياني أحد أهم مظاهر الإعجاز التعبيري في القرآن، لأنه يجمع بين جمال الصورة ودقة الدلالة ووحدة المقصد، ويجعل المتلقي لا يكتفي بفهم المعنى، بل يراه ويتخيله ويتفاعل معه.

المطلب الرابع: تكامل آليات التماسك البلاغي في بناء المعنى الكلي للخطاب القرآني:

لا تتشكل وحدة المعنى في الخطاب القرآني من خلال آلية بلاغية واحدة، وإنما تنتج عن تكامل مجموعة من الآليات التركيبية والمعجمية والدلالية والبيانية التي تتساند في بناء النص وتوجيه دلالته، فالحذف والذكر، والوصل والفصل، والتقديم والتأخير، والقصر، والتكرار، والإحالة، والتناسب، والتشبيه، والاستعارة، والكناية، كلها تعمل داخل نظام لغوي متكامل، بحيث يؤدي كل عنصر وظيفة خاصة، ثم تتفاعل الوظائف فيما بينها لإنتاج المعنى الكلي، ومن هنا فإن التماسك البلاغي لا يقتصر على وجود روابط ظاهرة بين الجمل، بل يقوم على انتظام العلاقات بين الألفاظ والتراكيب والصور والسياقات، بما يجعل النص القرآني وحدة متآلفة الأجزاء، وقد أكد الجرجاني أن حسن النظم إنما يتحقق بمراعاة معاني النحو والعلاقات القائمة بين أجزاء الكلام، فلا يكون اللفظ مستقلًا عن موضعه ووظيفته في السياق (الجرجاني، 1995: 50/1).

ويتضح هذا التكامل في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: 5)، إذ اجتمع في الآية التقديم والتأخير والتكرار والوصل، فتقديم إياك يوجه الدلالة إلى الاختصاص، وتكراره يؤكد استقلال العبادة عن الاستعانة مع اجتماعهما في التوجه إلى الله تعالى، بينما يصل العطف بين الفعلين في بناء دلالي واحد، وهكذا لا تعمل الظاهرة التركيبية منفردة، وإنما تتفاعل مع الظاهرة المعجمية والتكرارية لتقرير معنى التوحيد وإخلاص العبادة والاستعانة، وقد بيّن أبو موسى أن التقديم في التراكيب القرآنية يرتبط بالعناية بالمعنى وإبراز العنصر الذي يريد السياق توجيه الانتباه إليه (أبو موسى، 1980: 121/1).

ويتجلى التكامل بين التركيب والدلالة والتناسب في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى: 1–3)، إذ تبدأ السورة بالقسم بالضحى والليل، ثم تنتقل إلى نفي الوداع والقِلى، فتتصل الظواهر الكونية بالحالة النفسية التي يعالجها الخطاب، ويؤدي التقابل بين الضحى والليل دورًا دلاليًا في الانتقال من الظلمة إلى الإشراق، بينما يؤدي النفي المتكرر في ما ودعك وما قلى إلى تثبيت معنى استمرار العناية الإلهية، وقد أشار البقاعي إلى أن مناسبات الآيات تكشف عن روابط دقيقة بين مطالع السور ومقاصدها، وأن الانتقال بين المعاني يجري وفق نظام يحقق وحدة السياق (البقاعي، 1969: 424/20).

ويبرز التماسك المعجمي والدلالي في قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ (العاديات: 1–3)، إذ تتتابع الألفاظ المرتبطة بالحركة والسرعة والإغارة في حقل دلالي واحد، وتتصل الأفعال المتتابعة بالفاء التي تجعل كل صورة امتدادًا للصورة السابقة، فالعاديات والموريات والمغيرات تشكل سلسلة لفظية ودلالية متنامية، ثم ينتقل السياق إلى الإنسان وجحوده في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: 6)، فينشأ ارتباط بين مشهد القوة والحركة وبين الكشف عن طبيعة الإنسان، وقد أوضح الزمخشري أن انتظام هذه الألفاظ والأفعال في السياق يكسب الصورة قوة وحيوية ويجعل أجزاء المشهد متتابعة في ذهن المتلقي (الزمخشري، 2002: 790/4).

كما يظهر التكامل بين التكرار والتناسب والبيان في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: 13)، إذ تتكرر الآية عقب مقاطع متنوعة من النعم والمشاهد الكونية وأحوال الجزاء، فيعمل التكرار بوصفه رابطًا يعيد المقاطع المتعددة إلى محور واحد، بينما يؤدي الاستفهام وظيفة توجيهية تحمل المخاطب على استحضار النعم ومراجعة موقفه منها، ومن ثم فإن تكرار الآية لا يؤدي إلى الرتابة، بل يحقق بناءً إيقاعيًا ودلاليًا يجعل كل مقطع جديد مرتبطًا بما قبله من خلال اللازمة المتكررة، وقد أشار السيوطي إلى أن التكرار في القرآن يأتي لأغراض بلاغية متعددة، وأن اختلاف المواضع لا يلغي وحدة الغرض، بل قد يزيد المعنى تقريرًا وترسيخًا (السيوطي، 1975: 183/3).

ويظهر التكامل بين الصورة البيانية والتماسك الدلالي في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: 103)، إذ تقوم الاستعارة في حبل الله على تصوير رابطة الدين بالشيء الذي يتمسك به الإنسان ويحتمي به، ثم يأتي جميعًا ولا تفرقوا لتوسيع الصورة من الفرد إلى الجماعة، وهكذا تتفاعل الاستعارة مع التركيب والنفي والتوجيه، فتنتج الآية معنى متكاملًا يقوم على الاعتصام والوحدة ونبذ الفرقة، وقد بيّن أبو السعود أن التعبير بالحبل يصور شدة التمسك بالدين والاجتماع عليه، ويجعل المعنى المجرد أقرب إلى الحس والتصور (أبو السعود، 1999: 68/2).

ويظهر التناسب بين المعنى والصورة والتركيب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء: 29)، إذ اجتمعت الكناية والمقابلة والنهي والتكرار الضميري في بناء واحد، فغل اليد يصور البخل، وبسطها يصور الإسراف، ثم يأتي السياق ليقيم بينهما موقفًا معتدلًا، وقد أشار القزويني إلى أن المقابلة بين المعاني تزيدها وضوحًا وقوة، وتكشف عن الفروق التي يريد المتكلم إبرازها (القزويني، د.ت.: 198/1).

ومن النماذج الجامعة لآليات التماسك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: 5–6)، إذ يجتمع التكرار اللفظي، والتعريف والتنكير، والترابط التركيبي، والتوكيد، والإيقاع في بناء معنى واحد هو تأكيد اقتران اليسر بالعسر، ويؤدي تكرار الجملة إلى ترسيخ المعنى في النفس، بينما يكشف اختلاف التعريف والتنكير عن دقة التعبير في بناء الدلالة، وقد أشار ابن عاشور إلى أن التكرار في هذا الموضع جاء لتقوية الرجاء وتقرير سنة التيسير بعد الشدة (ابن عاشور، د.ت.: 406/30).

وتتكامل الآليات كذلك في بناء المقابلة الدلالية، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل: 5–10)، فالتماسك هنا يقوم على توازٍ تركيبي واضح بين الفريقين، وعلى تضاد

معجمي بين أعطى/يخل واليسرى/العسرى، وعلى تكرار البنية فتتساند هذه العناصر لإنتاج معنى قائم على ارتباط السلوك بالمصير، وقد بيّن القزويني أن المقابلة تزيد المعنى تقريرًا حين ترتب المتقابلات في بناء متوازن (القزويني، د.ت.: 199/1).

وبذلك يتبين أن تكامل آليات التماسك البلاغي هو الذي يمنح الخطاب القرآني وحدته الكلية؛ فالتركيب يضبط العلاقات بين الجمل، والمعجم يحافظ على المحاور الدلالية، والإحالة والتكرار يضمنان استمرارية المرجع والمعنى، والتناسب يربط الآيات والمقاطع، بينما تضيف الصور البيانية أبعادًا حسية ونفسية وإيحائية، وقد أكد دراز أن وحدة القرآن لا تقوم على وحدة الموضوع في كل موضع، وإنما على التآلف الدقيق بين المعاني والأغراض والعبارات داخل السياق (دراز، 1970: 171/1).

وعليه فإن المعنى الكلي للخطاب القرآني لا يتولد من عنصر منفرد، وإنما من شبكة متكاملة من العلاقات البلاغية التي تتفاعل في مستويات متعددة، فالآية قد تجمع بين تقديم أو تأخير، وتكرار أو إحالة، وتقابل أو استعارة، ثم تتصل بما قبلها وما بعدها من خلال تناسب موضوعي ودلالي، وبذلك يتحول التماسك البلاغي من مجرد ترابط بين وحدات لغوية إلى نظام شامل يوجه حركة المعنى من اللفظة إلى الجملة، ومن الجملة إلى الآية، ومن الآية إلى المقطع، حتى تتشكل الوحدة الكلية للخطاب القرآني في صورة تجمع دقة التركيب وثراء الدلالة وجمال البيان.

الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى أن التماسك البلاغي في الخطاب القرآني يمثل منظومة متكاملة تتجاوز حدود الترابط النحوي أو اللفظي إلى بناء شبكة دقيقة من العلاقات التي تنتظم فيها الألفاظ والتراكيب والمعاني والصور والسياقات، بما يسهم في إنتاج الدلالة القرآنية وتوجيهها وتعميقها، فقد تبين أن التماسك التركيبي يؤدي دورًا أساسيًا في إحكام العلاقات بين الجمل من خلال الحذف والذكر، والوصل والفصل، والتقديم والتأخير، والقصر وغيرها من الأساليب التي لا تأتي اعتباطًا، وإنما تتحدد قيمتها وفق مقتضى السياق والمقام، في حين يسهم التماسك المعجمي والدلالي في المحافظة على استمرارية الموضوع من خلال التكرار والتضاد والاشتقاق والمصاحبة والحقل الدلالي، فتنتظم الألفاظ في شبكة تكشف عن وحدة المعنى وتعدد مستوياته، كما أظهرت الدراسة أن الإحالة والتناسب يؤديان وظيفة مركزية في وصل أجزاء الخطاب، إذ يحافظان على استمرارية المرجع ويكشفان عن العلاقات القائمة بين الآيات والمقاطع، بينما ينهض التماسك البياني بالتشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل بتحويل المعاني المجردة إلى صور حية مؤثرة، وإثراء الدلالة بأبعاد حسية ونفسية وإيحائية، وقد أظهر التطبيق على النماذج القرآنية أن هذه الآليات لا تعمل منفردة، بل تتداخل وتتساند داخل البنية القرآنية؛ فقد يجتمع في الآية الواحدة التقديم والتكرار والتقابل والصورة البيانية، أو تتضافر الروابط المعجمية مع العلاقات التركيبية والتناسب السياقي لتوجيه المعنى نحو غايته، ومن ثم فإن وحدة الخطاب القرآني لا تعني غياب التنوع في الأساليب، وإنما تعني قدرة هذا التنوع على الانتظام داخل بناء محكم تتجه عناصره إلى مقاصد محددة، وهو ما يكشف عن خصوصية النظم القرآني ودقة اختياراته التعبيرية، وعليه فإن التماسك البلاغي يمثل عنصرًا جوهريًا في الكشف عن جمال الخطاب القرآني وطاقته الدلالية، ويؤكد أن البلاغة القرآنية ليست مظهرًا جماليًا منفصلًا عن المعنى، بل هي آلية أساسية في إنتاجه وتوجيهه وترسيخه في ذهن المتلقي.

النتائج:

1. أثبتت الدراسة أن التماسك البلاغي في الخطاب القرآني يقوم على منظومة متكاملة من العلاقات التركيبية والمعجمية والدلالية والبيانية، وليس على وسيلة لغوية واحدة.
2. تبين أن التماسك التركيبي يؤدي دورًا مباشرًا في توجيه الدلالة من خلال التقديم والتأخير والحذف والذكر والوصل والفصل والقصر، إذ يرتبط اختيار كل أسلوب بالمقصد الذي يفرضه السياق.
3. أظهرت الدراسة أن التماسك المعجمي والدلالي يسهم في تحقيق الوحدة الموضوعية من خلال التكرار والتضاد والاشتقاق والمصاحبة والحقل الدلالي، بما يحافظ على استمرارية المعنى رغم تنوع الألفاظ والتراكيب.
4. كشفت النماذج التطبيقية أن التشبيه والاستعارة والكناية ليست وسائل للتزيين اللفظي، وإنما تؤدي وظائف دلالية عميقة، إذ تجسد المعاني المجردة وتكثفها وتمنحها أبعادًا حسية ونفسية وإيحائية.
5. خلصت الدراسة إلى أن تكامل آليات التماسك البلاغي هو الأساس في بناء المعنى الكلي للخطاب القرآني؛ إذ تتفاعل المستويات المختلفة لتكوين وحدة نصية ودلالية متماسكة تكشف دقة النظم القرآني.

التوصيات:

1. التوسع في الدراسات التطبيقية التي تتناول التماسك البلاغي في سور قرآنية محددة، وربط التحليل البلاغي بالتحليل النصي والدلالي.
2. الإفادة من مفهوم التماسك البلاغي في الدراسات القرآنية الحديثة، وعدم الاقتصار على دراسة الظواهر البلاغية بوصفها أساليب منفردة منفصلة عن السياق.
3. دراسة العلاقات بين المستويات البلاغية المختلفة، ولا سيما العلاقة بين التماسك التركيبي والتماسك المعجمي والتماسك البياني؛ للكشف عن كيفية تكاملها في إنتاج الدلالة.
4. توجيه الباحثين إلى الإفادة من المناهج النصية الحديثة في قراءة الخطاب القرآني، مع المحافظة على الاستفادة من منجزات البلاغة العربية والتراث التفسيري.
5. إجراء دراسات مقارنة بين آليات التماسك في الخطاب القرآني وأنماط التماسك في الخطابات الأدبية العربية؛ للكشف عن الخصائص التي تميز النظم القرآني وطاقته البلاغية والدلالية.

المصادر والمراجع:

ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق .(1949) .*إصلاح المنطق* (تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط4). دار المعارف.

ابن جني، أبو الفتح عثمان .(1990) .*الخصائص* (تحقيق محمد علي النجار، ط4). دار الشؤون الثقافية.

ابن عاشور، محمد الطاهر. (د.ت.) .*التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد* .الدار التونسية؛ الدار الجماهيرية.

ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر .(2000) .*تفسير القرآن العظيم* (ط1). دار ابن حزم.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الفريقي .(1994) .*لسان العرب* (ط3). دار صادر.

ابن هشام الأنصاري، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف .(1985) .*مغني اللبيب عن كتب الأعاريب* (تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط6). دار الفكر.

أبو السعود، محمد بن علي مصطفى العمادي .(1999) .*إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم* (تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن، ط1). دار الكتب العلمية.

أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف .(2001) .*البحر المحيط* (تحقيق عادل عبد الموجود وعلي محمد عوض). دار الكتب العلمية.

أبو موسى، محمد .(1980) .*خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني* (ط2). مكتبة وهبة؛ دار التضامن.

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب. (د.ت.) .*مفردات ألفاظ القرآن* (تحقيق صفوان عدنان داوودي). دار القلم؛ الدار الشامية.

الآلوسي، محمود أبو الفضل. (د.ت.) .*روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني* .دار إحياء التراث العربي.

بدوي، أحمد أحمد. (د.ت.) .*من بلاغة القرآن* .دار نهضة مصر.

البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر .(1969) .*نظم الدرر في تناسب الآيات والسور* (ط1). مكتبة ابن تيمية.

البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي .(1999) .*أنوار التنزيل وأسرار التأويل* (ط1). دار الكتب العلمية.

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي. (د.ت.) .*سنن الترمذي* (تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين). دار إحياء التراث العربي.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن .(1995) .*دلائل الإعجاز في علم المعاني* (تحقيق محمد التنجي، ط1). دار الكتاب العربي.

الجرجاني، علي بن محمد بن علي .(1985) .*التعريفات* (تحقيق إبراهيم الأبياري، ط1). دار الكتاب العربي.

حاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله أبو عبد الله .(1990) .*المستدرك على الصحيحين* (تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1). دار الكتب العلمية.

حسان، تمام (مترجم) .(1998) .*النص والخطاب والإجراء* (روبرت دي بوجراند، ط1). عالم الكتب.

الحمداني، عبد القادر عبد الله فتحي .(2003) .*سور الحواميم: دراسة بلاغية تحليلية*]أطروحة دكتوراه، جامعة الموصل، كلية الآداب.[

دراز، محمد عبد الله .(1970) .*النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن* (ط2). دار القلم.

الرازي، فخر الدين محمد بن عمر .(1985) .*التفسير الكبير* (ط3). دار الفكر.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. (د.ت.) .*البرهان في علوم القرآن* (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2). عيسى البابي وشركاؤه.

الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي .(2002) .*الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل* (اعتنى به وخرج أحاديثه خليل مأمون شيحا، ط1). دار المعرفة.

الزيدي، كاصد. (1978). الجرس والإيقاع في القصة القرآنية .*مجلة آداب الرافدين*، .(9)

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر محمد .(1975) .*الإتقان في علوم القرآن* (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم). الهيئة المصرية العامة للكتاب.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر محمد .(1995) .*التحبير في علم التفسير* (تحقيق زهير عثمان علي، ط1). مطبوعات إدارة الشؤون الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

الصابوني، محمد علي .(2003) .*صفوة التفاسير* .المكتبة العصرية.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير .(2001) .*جامع البيان عن تأويل آي القرآن* (تحقيق محمود شاكر، ط1). دار إحياء التراث العربي.

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب .(1983) .*القاموس المحيط* .دار الفكر.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن فرج .(1988) .*الجامع لأحكام القرآن* (ط1). دار الكتب العلمية.

القزويني الشافعي، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن. (د.ت.) .*الإيضاح في علوم البلاغة* (تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط3). دار الجبل.

القطب، سيد .(1979) .*في ظلال القرآن* (ط8). دار الشروق.

مسلم بن الحجاج النيسابوري، أبو الحسين القشيري. (د.ت.) .*صحيح مسلم* (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي). دار إحياء الكتب العربية.